وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾

التفسير: أي أن الذين ينكرون آيات الله ولا يرجون لقاءه إنما سببه أنهم يصبحون يائسين من رحمة الله وموقنين بعقابه؛ فيسعون للنجاة من الهلاك ويريدون أن يدفعوا هذا الموت إلى النبي وأتباعه حتى لا يسمعوا منهم الحديث عن البعث بعد الموت ولا يصابوا بالذعر. فيبدأ هؤلاء في الهجوم على الأنبياء وجماعتهم ليقضوا عليهم، فيقعون تحت بطش الله تعالى. وحيث إنهم يصبّون على الأنبياء وجماعتهم صنوف الأذى والتعذيب، فيعذّبهم الله عذابًا أليمًا.

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٥﴾

التفسير: أي لما نصح إبراهيم عليه السلام أهل عصره أن يتركوا عبادة الأصنام ويعبدوا الله وحده، حرّض بعضهم بعضًا ضد إبراهيم، فقالوا تعالوا نقتله أو نحرقه في النار، ولكن الله تعالى نجاه منها.

لقد بين الله تعالى في مكان آخر من القرآن الكريم كيف نجا إبراهيم من النار فقال: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾(الأنبياء:٧٠).. أي قلنا للنار المادية ستُلقى فيك الآن نار روحانية، فكُوني باردةً إزاءها. إن نار محبّتي مضطرمة في قلب إبراهيم، ولا يقدر شيء في الدنيا على مقاومة نار محبتي، شأن الشمس التي تتغلب على أضواء الشموع، وشأن الجمرة الملتهبة التي يجد المرء حرارتها أشد من أي حرارة أخرى؛ فكوني، أيتها النار، باردة على إبراهيم، إذ لا مقارنة بينك وبين نار حبي المشتعلة في قلبه.

هذا، وقد تلقى المسيح الموعود عليه السلام أيضًا إلهامًا مماثلاً باللغة الأردية وهو:

آگ سے ہمیں مت ڈراؤ، آگ ہماری غلام بلکہ غلاموں کی غلام ہے۔

(ملفوظات (أردو) المجلد ٤ ص ٢)

أي لا تُخوّفنا من النار، لأن النار عبدٌ لنا بل عبدٌ لغِلماننا. والمراد أن نار عشق الله تعالى مشتعلة في قلوبنا، فلا تساوي النارُ المادية إزاءها شيئًا، إذ بوسع اللوحة الحديدية الحامية أن تحرق يد الإنسان ولكنها لا تقدر على إحراق الجمرة المشتعلة؛ كذلك من المحال أن تحرق النار إنسانًا تضطرم في قلبه نار حب الله تعالى.

فما حدث مع إبراهيم عليه السلام هو أن الله تعالى أرسل سحابًا، فأمطر وأبرد النار على إبراهيم. فآمن به بعض الناس من قومه برؤية هذه المعجزة ونجوا من عذاب النار.

كان الخليفة الأول رضي الله عنه يقول في تفسير هذه الآية في أول أمره إن النار هنا نار المعارضة التي أبردها الله تعالى. وأتذكر أن شخصًا باسم عبد الغفور ارتد عن الإسلام عام ١٩٠٣ الميلادي واعتنق الهندوسية، واختار لنفسه اسم "دهرمبال"، ثم كتب كتابًا بعنوان "ترك الإسلام". فقام الخليفة الأول رضي الله عنه بالرد عليه، وقد نُشر كتابه بعنوان "نور الدين". كانت مسودة كتابه تُقرأ على مسامع المسيح الموعود عليه السلام يوميًا. ومن الاعتراضات التي أثارها "دهرمبال" في كتابه قوله بأن النار إذا كانت قد بردت على إبراهيم فعلاً، فلم لا تبرد على الآخرين؟ فردّ عليه الخليفة الأول رضي الله عنه بأن النار هنا ليست مادية، وإنما هي نار المعارضة. فقال له المسيح الموعود عليه السلام: ما الداعي لهذا التأويل؟ فقد سماني الله تعالى أيضًا في وحيه "إبراهيم"، فإذا كان الناس لا يفهمون كيف أصبحت النار بردًا على إبراهيم عليه السلام فيمكنهم أن يُلقوني في النار ليروا كيف أخرج منها سالمًا. وبناءً على قول المسيح الموعود عليه السلام هذا قام الخليفة الأول بتعديل الجواب وكتب ما تعريبه:

يمكنكم أن تُلقوا إمامنا في النار، وسيحفظه الله منها يقينًا بحسب وعده كما حفظ إبراهيم عليه السلام. (نور الدين ص ١٨٧)

وبناء على ما قاله المسيح الموعود عليه السلام للخليفة الأول فإني كلما قمت بتفسير هذه الآية لم أقل أن النار التي أخمدها الله على إبراهيم عليه السلام إنما هي نار المعارضة، بل قلت إن المعارضين قد ألقوا إبراهيم في النار فعلاً، ولكنها بردت عليه. وحيث إن الله تعالى يسخّر الأسباب المادية لأفعاله في الدنيا، فمن الممكن أن يكون السحاب قد جاء فأمطر وأخمد النار. المهم أننا نؤمن بأن الأعداء قد أشعلوا النار فعلاً ضد إبراهيم عليه السلام، ولكن الله تعالى خلق من الأسباب ما أحبط كيدهم ونجّاه من النار.

لقد بيّن المسيح الموعود عليه السلام هذا الموضوع في كتبه ويومياته أيضًا. فذات مرة عُرضت عليه رسالة بعثها بعض أفراد جماعته قال فيها: أكانت النار التي صارت بردًا على إبراهيم نارًا مادية في الحقيقة، أم نار الفتنة والمعارضة؟ فكتب إليه المسيح الموعود عليه السلام في الجواب ما تعريبه:

"فيما يتعلق بنار الفتنة والفساد فإنها تُضرم ضد كل نبي، وهي التي تتخذ دائمًا منحى بحيث يُظهر الله تعالى إزاءها قدرته المعجزة تأييدًا لنبيه. أما إخماد النار المادية على إبراهيم عليه السلام فليس بأمر عسير على الله تعالى، بل إن مثل هذه الأحداث تقع دائمًا في الدنيا. ولا حاجة بنا إلى كثير من البحث والتدقيق فيما حصل مع إبراهيم عليه السلام إذ قد مضى عليه آلاف السنين، فإننا لا نـــزال نرى ونجرب بأنفسنا مثل هذه الأحداث في هذا الزمن أيضًا. فذات مرة كنتُ في مدينة سيالكوت، وكان المطر ينـــزل، فسقطت الصاعقة ودخلت في الغرفة التي كنت جالسًا فيها، فامتلأت الغرفة بالدخان وبرائحة كرائحة الكبريت، ولكنها لم تصبنا بضرر. وقد سقطت نفس الصاعقة وفي نفس الوقت على معبد هندوسي شهير باسم معبد "تيجاسنغ"، وكان "تيجاسنغ" جالسًا في المعبد وسط عدة جدران ملتوية على شكل حلزوني حيث يطوف بها الهندوس بحسب عادتهم، فدخلت الصاعقة في المعبد ومرت بكل هذه الطرق الملتوية ووصلت إلى تيجاسنغ، فأحرقته حتى صار أسود اللون كالفحم. فترى أن نار الصاعقة نفسها قد أحرقته وقتلته، ولكنها لم تصبنا بضرر لأن الله تعالى حفظنا.

وهناك حادث آخر وقع معي في سيالكوت أيضًا. فكنتُ ذات ليلة نائمًا في الطابق الثاني من بيت، وكان ينام في الغرفة نفسها حوالي ستة عشر شخصًا. فسمعتُ صوتًا غريبًا ينبعث من العمود الخشبي الذي يحمل السقف، فأيقظتُ أصحابي وقلت يبدو أن العمود على وشك أن ينكسر، فلنخرج من هنا فورًا. فقالوا: ربما هناك فأرٌ يُحدث هذا الصوت، فلا داعي للقلق، وعادوا لسباتهم. وسمعت نفس الصوت بعد وقت قصير، فأيقظتهم، ولكنهم لم يكترثوا لقولي. ثم سمعت الصوت للمرة الثالثة، فأيقظتهم قسرًا وأخرجتهم من الغرفة. وخرجت منها بعدهم، وما إن وضعت قدمي على الدرج الثاني حتى سقط السقف وانهار معه سقف الطابق الأول أيضًا وكسر الأسرّة كليةً، ولكن نجا الجميع. هذه هي حماية الله المعجزة، حيث لم يسقط العمود إلا بعد خروجنا من الغرفة.

كذلك عثرنا مرةً على عقرب ميت على سريري داخل لحافي. وفي مرة أخرى عثروا على عقرب حي يمشي داخل لحافي، ولكن الله تعالى نجاني من ضرره في كلتا المرتين.

وذات مرة أصابت النار ثوبي دون أن أدري، فأخبرني شخص آخر، فأُطفئت النار.

فليس عند الله تعالى طريق واحد لإنقاذ الناس، بل عنده طرق كثيرة. وثمة أسباب كثيرة وراء خاصية الحرارة والإحراق في النار أيضًا، بعض هذه الأسباب لا تزال خفية لم يطلع عليها الناس، كما لم يكشف الله تعالى على الدنيا بعدُ الأسباب التي تزيل صفة الإحراق من النار؛ فلا غرابة في أن تكون النار قد بردت على إبراهيم فعلاً." (جريدة "الحَكَم" عدد ١٠ يونيو ١٩٠٧ ص ٣)

وكذلك كتب حضرته عليه السلام في كتابه "البراهين الأحمدية" ما تعريبه:

"إنه لمن الخطأ الفادح الذي ارتكبه "برهموسماج" أنهم يريدون تحديد قدرة الله وربوبيته التي لا نهاية لها في نطاق تجاربهم القليلة الضيقة، ولا يفهمون أن الأمور التي انحصرت في قانون معلوم مقرر لا بد أن تُعتبر محدودةً، أما الحِكم والقدرات التي توجد في ذات غير محدودة فلا بد أن تكون غير محدودة. فهل بوسع عاقل أن يقول

أن ذات الله التي تملك القدرة المطلقة تعلم خلق الأشياء إلى هذا الحد ولا تعلم أكثر من ذلك؟ هل يمكن قياس قدراته ﷻ غير المتناهية بمقياس الإنسان؟ أو هل من الممكن أن تصبح حِكمه القادرة غير المتناهية عاجزة عن التصرف في العالم في وقت ما؟ لا شك أن يده القوية قابضة على كل ذرة من الكون، وليس ثمة مخلوق هو قائم بسبب قوته الذاتية، بل هو قائم لأن الله تعالى يقيمه ويسانده. وهناك ميادين كثيرة واسعة لإظهار قدراته الربانية، ولا نهاية لها لا في داخل الأشياء ولا في خارجها. فكما أنه من الممكن أن يخلق الله لإطفاء نار مشتعلة أسبابًا خارجية، كذلك من الممكن تمامًا أن يخلق من داخل النار المضطرمة ما يزيل خاصية الإحراق فيها، لأن حِكمه تعالى غير متناهية، ولا شيء هو مستحيل أمام قدرته. وما دمنا قد اعترفنا بأن حِكمه وقدراته غير متناهية فلزِم علينا أن نعترف أيضًا بأنه من المحال علينا أن نحيط بجميع حِكمه وقدراته علمًا. إذًا، فلا نستطيع أن نضع قانونًا لحِكمه وقدراته التي لا نهاية لها؛ إذ إننا عاجزون عن قياس الشيء الذي لا نعرف حدوده. إن عالَمنا، نحن بني آدم، صغير وضيّق جدًا، ثم ليس لدينا علم كامل بهذا العالَم أيضًا؛ فمن السفاهة وسوء الأدب أن نحاول، والحال هذه، قياسَ حِكم الله وقدراته غير المحدودة بقياسنا الناقص المحدود جدًا." (براهين أحمدية الجزء الرابع، الخزائن الروحانية المجلد ١ ص ٤٨٢-٤٨٨ الهامش ١١)

كما بين حضرته عليه السلام هذا الموضوع في كتاب آخر فقال ما تعريبه:

"وثمة أمر جدير بالذكر، وهو أن الخوارق التي تظهر على يد الأولياء أحيانًا حيث لا يُغرقهم الماء أو لا تضرهم النار، إنما السر وراءها أن الحكيم المطلَق – الذي لا يستطيع الإنسان الإحاطةَ بأسراره غير المتناهية – يُري في بعض الأحيان قدرةً خارقة عند توجُّه أحبّته ومقرّبيه إليه تعالى بالدعاء بحيث إن توجُّههم يتصرف في هذا العالم. ذلك أن الأسباب الخفية التي من شأنها إزالة خاصية الإحراق من النار مثلاً – سواء أكانت تلك الأسباب من قبيل تأثيرات الأجرام الفلكية، أو من قبيل الخواص الكامنة في النار نفسها، أو من قبيل الخواص الخفية في بدن ذلك الإنسان نفسه، أم كانت مجموعةَ كل هذه الأمور معًا – تتحرك وتتيسر نتيجة توجّه ذلك

الإنسان ودعائه، فيظهر الأمر الخارق. بيد أن وقوع هذه الخوارق لا يعني أنه لم يبق لخواص الأشياء وحقائقها اعتبار، أو أن العلوم قد ضاعت، بل إنها في حد ذاتها علمٌ من العلوم الإلهية؛ حيث تبقى الخوارق في محلها، وتبقى خواص الأشياء – كخاصية إحراق النار مثلاً – في محلها أيضًا؛ وبتعبير آخر إنها أسباب روحانية تُبدي أثرها بالتغلب على النار، وهي مختصة بوقتها ومحلها.

إن عقل الدنيا المادية لا يقدر على استيعاب هذه الحقيقة بأن الإنسان الكامل يكون مهبطًا لتَجَلِّي الروح الإلهية، وعندما يكون الإنسان الكامل خاضعًا لتجلي الروح الإلهية في ذلك الوقت الخاص، فكل شيء يخافه كخوفه من الله تعالى، فلو ألقيتموه عندها أمام وحش كاسر أو في النار فلن يصاب بضرر، لأن روح الله تعالى تكون عليه في ذلك الوقت، وكل شيء قد عاهد الله على أن يخافه ﷻ. إن هذا آخر أسرار المعرفة الإلهية الذي لا يمكن استيعابه بدون صحبة الكاملين. وحيث إنها ظاهرة دقيقة المأخذ ونادرة الوقوع فليس بوسع كل عقل أن يدرك هذه الحكمة. ولكن تذكّروا أن كل شيء يلبي نداء الله تعالى، وأن كل شيء تحت تصرف الله تعالى، وأن كل الخيوط لكل شيء بيد الله تعالى. إن حكمته لا تعرف الحدود، وتصل إلى جذر كل ذرة، وإن خواص كل شيء هي بقدر قدرات الله تعالى. ومن لم يؤمن بذلك فهو من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾(الأنعام:٩٢). وحيث إن الإنسان الكامل يكون أَتَمَّ مَظْهَرٍ للعالم كله، فإن العالم كله ينجذب إليه من حين إلى آخر. إنه عنكبوت العالم الروحاني، وكل العالم هو خيوطه. وهذا هو سرُّ الخوارق." (بركات الدعاء، الخزائن الروحانية المجلد ٦ ص الحاشية ص ٢٩-٣١)

وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ

وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾

التفسير: لقد بيّن الله تعالى هنا أن قوم إبراهيم ألقوه في النار، فنجاه الله منها بطريق معجز. وبما أنه عليه السلام كان عاشقًا لوحدانية الله تعالى، فأخذ في وعظهم ثانية بعد نجاته من النار فورًا، وقال إنما اتخذتم هذه الأصنام آلهةً لتزيدكم حبًّا في الدنيا.. أي لكي تكون سببًا لوحدتكم ويقول بعضكم لبعض: كلنا من عبدة هذه الأصنام وكلنا إخوة. ولكن اعلموا أن هذه الأصنام لن تنفعكم في الآخرة، بل سيكفر العَبَدة بأصنامهم والأصنام بعَبَدتها، ويلعن بعضهم بعضًا، فيُدخَل الكافرون في النار، ولن يقدر أحد على نصرتهم.

لقد بين الله تعالى هنا أن الشرك ليس أساسه على الدليل والبرهان، وإنما يقع فيه الناس ليرضى عنهم القوم ويثنوا عليهم؛ أما الدين الحق فيتأسس على الدليل والمنطق دائمًا، ويفضّل أتباعُه رضا الله على رضا الناس؛ وهذا يعني أن المشرك يؤثر الدنيا على الدين، ولكن المؤمن يؤثر الدين على الدنيا. إن المشرك يخاف الناس ويسعى لاسترضائهم، ولكن المؤمن لا يخاف إلا الله ويسعى أن يحظى برضوانه دائمًا.

أما قوله تعالى: ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾، فبيّن فيه أن صداقة الكفر لا تدوم؛ فإن الذين من أجلهم يعادي المرء اللهَ ورسولَه يخذلونه في نهاية المطاف في الدنيا، كما لن تنفعه صداقتهم يوم القيامة أيضًا.

فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ

ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾

التفسير: عندما رأى الناس معجزة خروج إبراهيم عليه السلام من النار حيًّا آمن به بعضهم، وكان من بينهم لوط عليه السلام، وكان ابنَ أخيه حارانَ. (التكوين١٢: ٥)

ثم أعلن إبراهيم أمام الناس عن هجرته، وقال سأترك الآن وطني لوجه الله تعالى، وإني على يقين أن ربي الذي هو غالب ولا تخلو أفعاله كلها من الحِكم سيكتب لي الغلبة، ولن يضيّع هجرتي بل سيكلّلها بنتائج طيبة.

لما ترك إبراهيم عليه السلام لوجه الله تعالى وطنَه وأقاربه وأعزّته جزاه الله على إخلاصه كما قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾.

واعلم أنه لمن الثابت من التاريخ والتوراة أيضًا أن الرسل قد جاؤوا من غير ذرية إبراهيم أيضًا، وعليه فقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ لا يعني أن الله تعالى لم يبعث الرسل من أمم أخرى، إنما المراد أن الأنبياء ظلوا يُبعثون من ذرية إبراهيم ولم تنقطع بعثتهم من نسله؛ إذ صرح الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾(فاطر:٢٥)، وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (الرعد:٨).. أي قد جاء الأنبياء والهداة من كل قوم ولم يخص الله تعالى بعثتهم بزمن معين. فليس المراد أن الله تعالى خص ذرية إبراهيم فقط بالنبوة والكتاب، ولم يبعث نبيًا في أمة أخرى، بل المراد أنه تعالى لما رأى إخلاص إبراهيم عليه السلام قرر أن يبعث في ذريته ذلك النبي الموعود على لسان موسى، والذي كان عليه أن يأتي بشريعة نارية[٥]. وحيث إن النبوة التامة المستقلة قد انتهت بعد النبي ﷺ وليس بعده إلا النبوة الظلية والبروزية، فقد انحصرت النبوة بواسطة النبي ﷺ في أسرة إبراهيم عليه السلام فقط إلى يوم

[٥] من معاني "الشريعة النارية" أنها تأكل الآثام كما تأكل النار الحطب. (المترجم)

القيامة من الناحيتين المادية والروحانية كلتيهما، فليس بوسع أحد الآن أن يصل إلى العتبة الإلهية بدون الاستنارة من الشمس المضيئة أي محمد ﷺ الذي كان من نسل إبراهيم عليه السلام.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فيعني أن إبراهيم سيكون في الآخرة صالحًا لنيل الدرجات العلى ومن بين جماعة المنعم عليها.

ومن معانيه أيضًا أن كثيرًا من الناس سيعترفون بصلاح إبراهيم عليه السلام في الزمن الأخير. وبالفعل ترى أن جميع الأمم القائمة في هذا الزمن الأخير.. أعني المسلمين واليهود والنصارى.. كلهم يؤمنون بإبراهيم عليه السلام.

ومن معانيه أيضًا أن الرجل الذي سيُبعث كظلٍّ لإبراهيم عليه السلام في الأيام الأخيرة، سيكون صالحًا لهذه المهمة عند الله تعالى، وأن الذين يطعنون فيه سيكونون على الخطأ.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣١﴾

التفسير: ويبدو من قوله تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ أن الحضارة كانت مزدهرة في زمن لوط عليه السلام، وكان قومه متجاسرين على ارتكاب الفواحش

في المجالس غير مستنكرين إياها، شأن أهل أوروبا وأمريكا الذين قد انتشرت فيهم الخلاعة والمجون على نطاق واسع، فلا يرون عيبًا في عناق النساء وتقبيلهن في الأماكن العامة وارتكاب الزنا في الحدائق العامة.

لم يرتدع قوم لوط عليه السلام عن تصرفاتهم رغم نصحه، بل تحدّوه وقالوا: ائتنا بالعذاب إن كنت من الصادقين. فلم يجد لوط بدًا من أن يدعو الله تعالى ويقول ربِّ انصرْني على هؤلاء القوم المفسدين.

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾

التفسير: قال المفسرون إن المراد من ﴿رُسُلُنَا﴾ هم الملائكة (الرازي)، ولكنهم في رأيي بعض صلحاء تلك المنطقة الذين تلقوا وحيًا من الله بقرب عذاب قوم لوط، فحضروا بالخبر إلى إبراهيم أوّلاً ثم إلى لوط – عليهما السلام.

والدليل على أن الرسل كانوا بشرًا أنهم لما جاءوا إلى إبراهيم عليه السلام لم يلبث أن دخل إلى بيته وذبح لهم عجلاً (هود:٧٠). فلو كانوا ملائكة عند إبراهيم لما أعدّ لهم الطعام.

ثم إنهم عندما لم يمدّوا أيديهم إلى الطعام وظن إبراهيم عليه السلام أنه ربما قصّر في ضيافتهم قالوا له: لا تخف إنا أُرسلنا إلى قوم لوط.. أي اهدأْ بالاً، فإنا نشكرك على الضيافة، ولكنا ذاهبون بخبر العذاب إلى لوط، فاعذرْنا من تناول الطعام. إن

جوابهم هذا أيضًا دليل على أنهم لم يكونوا ملائكة وإلا لقالوا بكل بساطة: إنّا ملائكة لا نأكل الطعام، فلا نستطيع أن نأكل عندك أيضًا.

ثم إن هؤلاء لما جاؤوا إلى لوط عليه السلام لم يقل عند رؤيتهم إنهم ملائكة الله الذين جاءوني، بل قال: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾(الحجر:٦٣). مما يدل أنه لم يفكر أنهم ملائكة بل اعتبرهم بشرًا.

ومما يدل على أنهم كانوا بشرًا أن الله تعالى يقول في القرآن الكريم: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً﴾(الإسراء:٩٦). لقد تبين من هنا أن الملائكة إنما تأتي كرسل إلى الأبرار فقط لا إلى الأشرار. ولكن هذا الحادث يؤكد أن أهل قرية "سدوم" كلهم قد رأوا هؤلاء الرسل، ولاموا لوطًا عليه السلام على حضورهم عنده. فظهور هؤلاء الرسل أمام القوم الذين قد قرر الله عذابهم ظهورًا ماديًّا يتنافى مع هذه الآية. فثبت أن هؤلاء الرسل لم يكونوا ملائكة بل كانوا بعض الصلحاء من المنطقة المجاورة لسدوم الذين أخبرهم الله تعالى باقتراب عذاب قوم لوط، وأرسلهم إليه لكي لا يجد نفسه وقت العذاب بلا ناصر ولا معين، بل يأخذوه إلى مكان محفوظ.

ثم إن التوراة – وهي مليئة بكل رطب ويابس – تعتبر هؤلاء الرسل بشرًا مرة وملائكة مرة أخرى. فقد ورد فيها في مكان عن إبراهيم عليه السلام: "وهو جالس في باب الخيمة وقتَ حَرِّ النهار، فرفَع عينيه ونظَر وإذا ثلاثةُ رجال" (تكوين ١٨: ١-٢)؛ وورد في موضع آخر منها: "ثم قامَ الرجال من هناك وتَطلَّعوا نحوَ سَدُومَ" (تكوين ١٨: ١٦). ولكن ورد في موضع آخر منها: "فجاء الملاكَان إلى سَدُومَ مساءً، وكان لُوطٌ جالسًا في باب سَدُومَ" (تكوين ١٩: ١). ومع أن التوراة تقول هنا إن القادمين كانا ملاكَين إلا أنها تقول أيضًا إن لوطًا "صنَع لهما ضيافةً وخَبَزَ فطيرًا، فأكَلا." (تكوين ١٩: ٣). مع أنهما لو كانا ملَكَين فمن المحال أن يتناولا الطعام. فثبت أن هؤلاء الرسل لم يكونوا ملائكة، بل كانوا بعض الصالحين الذين أُرسلوا إلى لوط عليه السلام.

أما السؤال لم ذهب الرسل إلى إبراهيم أوّلاً، ولم يذهبوا إلى لوط مباشرة؟ فالجواب أن لوطًا عليه السلام كان من أتباع إبراهيم عليه السلام، وهكذا كان نبيًا تابعًا له كما كان إسحاق وإسماعيل نبيين تابعين له، أو كما كان هارون نبيًا تابعًا لموسى، وإن لم يكن أحد منهم نبيًا أُمّيًّا أي كانت النبوة عندها توهب مباشرة وليس عن طريق الاستفاضة من فيوض نبي سابق، فبما أن لوطًا عليه السلام كان قبل بعثته قد آمن بإبراهيم عليه السلام كما هاجر معه إلى الشام، فلذا أخبر إبراهيمَ أوّلاً بهلاك قوم لوط، كما زفّ إليه قبل خبر العذاب خبرًا سارًّا بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾، وهو البشارة بولادة إسحاق عنده المذكورة في القرآن الكريم في سورة هود آية ٧٢ وسورة الحجر آية ٥٤ وسورة الذاريات آية ٢٩. وقد قال العلامة أبو حيان أن المراد من البشرى هنا خبر ولادة ابنه إسحاق وحفيده يعقوب. (البحر المحيط)، وهذا يعني أن الله تعالى قد بشّر إبراهيم أوّلاً بذرية طيبة قبل أن يخبره بهلاك قوم لوط، وذلك تخفيفًا لصدمته بخبر العذاب.

أما السؤال: لِم لم يوح الله تعالى إلى لوط عليه السلام بخبر هلاك قومه، بدلاً من أن يخبر هؤلاء البشر ليذهبوا إليه ويخبروه به؟ فالجواب: أن لوطًا كان ابن أخي إبراهيم عليه السلام بحسب التوراة، وكان من قرية "أُوْر" الواقعة في العراق، وقد هاجر معه إلى أرض كنعان أي فلسطين، ثم ارتحل من عنده ليقيم في قرية سدوم. (تكوين ١٢: ٤-٥)

وورد في التلمود - وهو كتاب روايات اليهود وتاريخهم - أن أهل سدوم وعمورة كانوا يقطعون السبيل على المسافرين (الموسوعة اليهودية تحت: Sodom)، كما أشير إليه في القرآن الكريم هنا بقوله تعالى: ﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾. ومن الطبيعي أن الذين يؤذون جيرانهم يعيشون خائفين منهم أن يُلحقوا بهم الضرر. وبالفعل كان أهل سدوم وجيرانهم في حرب، بل تُخبر التوراة أن ملوك هذه القرى المجاورة قد شنوا الهجوم على سدوم وعمورة، وسلبوا كل ما عندهم من أموال وغلال، وأخذوهم أسرى بمن فيهم لوط، فعلم إبراهيم عليه السلام بذلك، فخرج وراءهم في جيش قوامه ثلاث مئة وثمانية عشر مقاتلاً، وقام بتحرير لوط وغيره من رجال

ونساء سدوم وعمورة، كما استرد من العدو أموالهم. واستقبل ملكُ سدوم إبراهيمَ عليه السلام عند قفوله من هذه المهمة منتصرًا، أما "ملك صدْق" الذي كان ملكًا على "سالم" فأقام مأدبة لإبراهيم عليه السلام بهذه المناسبة. وقال ملكُ سدوم لإبراهيم: خُذ الأموال ورُدَّ لي الرجال، فقال له إبراهيم: لن آخذ من هذه الأموال حتى شِراكَ نعلٍ، وردَّ له كل شيء (التكوين: ١٤).

فلم يكن لوط عليه السلام على معرفة تامة بالمنطقة، وكان فيها أعداء سدوم أيضًا، فلو أخبره مباشرة بقرب حلول العذاب على قومه، فخرج من قريته لم يعرف أين يذهب، فدبّر الله له الأمر حيث أوحى إلى بعض صلحاء تلك المنطقة أن يذهبوا إلى لوط ويخبروه بقرب نـــزول العذاب ويأخذوه إلى مكان محفوظ لأنه ليس ملِمًّا بالمنطقة جيدًا.

وهناك سؤال آخر: هل ثمة مثال في الماضي حيث لم يعلم النبي بهلاك قومه، بينما علم به الآخرون؟

والجواب أن هذا السؤال ناشئ عن قلة التدبر، إذ الواقع أن لوطًا عليه السلام كان قد أنذر قومه بالعذاب من قبل، حيث ورد في القرآن الكريم قول الرسل للوط: ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾(الحجر:٦٤).. أي جئناك بخبر العذاب الذي كانوا يشكّون فيه. فهؤلاء الرسل أيضًا يؤكدون أن لوطًا عليه السلام كان قد أنذر قومه بالعذاب، ولكن لما اقترب العذاب جدًا أوحى الله إلى بعض صلحاء تلك المنطقة وأرسلهم إلى لوط ليذهبوا به إلى مكان آمن. ولولا أن دبّر الله هذا الأمر بحكمته لكان لوط عليه السلام في عناء كبير ولقال في نفسه: أين أذهب الآن وقد أوشك نزول العذاب بالمدينة؟ فإني لا أعرف أحدًا في المنطقة، وجيران سدوم يعادون أهلها.

هذا، وهناك أمثلة لذلك في الإسلام أيضًا، حيث أخبر الله تعالى رسوله ﷺ بمسائل هامة من خلال وحيه إلى المسلمين. مثلاً لقد علّم الله تعالى عبدَ الله بن زيد رضي الله عنه الأذانَ في الرؤيا، وبناءً على رؤيا هذا الصحابي سنَّ النبي ﷺ الأذان للصلاة في الإسلام، ثم صدّق الله رؤياه بوحيه في القرآن الكريم أيضًا. ويروي عمر رضي الله عنه أن الله تعالى علّمه نفس الأذان بالوحي، ولكنه ظل صامتًا عشرين يومًا لأن صحابيًا كان

قد أخبر النبي ﷺ برؤياه بهذا الصدد (أبو داود: كتاب الصلاة، باب بدء الأذان، وابن ماجة: أبواب الأذان، باب بدء الأذان).

وهناك حديث للرسول ﷺ يؤكد هذه الظاهرة حيث قال ﷺ: "المؤمن يَرى ويُرى له" (السنة لابن أبي عاصم الجزء الأول ص ٢١٤).. أي أن المؤمن يتلقى الخبر مباشرةً حينًا، وحينًا آخر بطريق غير مباشر. إذًا، فلا اعتراض على تلقي لوط عليه السلام خبر اقتراب العذاب بواسطة بعض الصلحاء.

أما قول الرسل: ﴿إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ فلا يعني أنهم كانوا يتمتعون بقدرة خارقة لإهلاكهم، إنما المراد أنهم قد أُرسلوا من عند الله إلى لوط بخبر هلاك القرية لأن أهلها ظالمون. ولو سلّمنا جدلاً أن الرسل كانوا ملائكة فإن الملائكة أيضًا لا تعذّب أحدًا من عند نفسها وإنما تأتي بخبر العذاب من عند الله تعالى. فقوله: ﴿إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ إنما يعني مجرد الإخبار باقتراب العذاب لا إنـــزاله.

أما إبراهيم عليه السلام فلما سمع خبر نـــزول العذاب على القرية ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً﴾، فأجابه هؤلاء الصلحاء: نحن أعلم بمن فيها، وسننجيه وأهله من العذاب إلا زوجته التي هي من الغابرين.. أي سنأخذ لوطًا إلى مكان آمن، إذ أُرسلنا إليه لهذا الغرض نفسه.

وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ

يَفْسُقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٦﴾

التفسير: أي لما وصلت رسلنا هؤلاء إلى لوط تضايقَ برؤيتهم لأن قومه كانوا قد نهوه عن استضافة الغرباء، حيث ورد في القرآن الكريم في مكان آخر قول معارضي لوط: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (الحجر:٧١).. أي ألم نمنعك من إحضار المسافرين الغرباء إلى بيتك؟ ذلك أن المدن في ذلك الزمن كانت صغيرة وبعيدة بعضها عن بعض، وكان الناس يخافون إحضار المسافرين الأجانب مخافة أن يتآمروا عليهم فينهبوهم. وحيث إن أهل سدوم كانوا قُطاع طرق وكانوا يرون أن الآخرين أيضًا صعاليك مثلهم، فكانوا لا يسمحون للمسافرين الغرباء بالإقامة بينهم، خشية أن يفتحوا المدينة ليلاً فيُفاجئهم العدو بالهجوم. وكان لوط عليه السلام إنسانًا مضيافًا، فكان يأتي بالمسافرين إلى بيته مخافة أن يتعرضوا للنهب إذا باتوا في الخارج، وكان قومه ينهونه عن ذلك؛ فلما جاء بالرسل ثار قومه غضبًا وأَتوه مسرعين، فتأذى لوط بسبب ضيوفه وخاف أن يُخزيه قومه أمامهم، فقال له الرسل: ﴿لا تَخَفْ﴾.. أي لا داعي للخوف الآن لأن الله تعالى قد قرر هلاكهم. ولكن كان طبيعيًا أن يحزن لوط عليه السلام بهلاك قومه، فطمأنوه وقالوا له: ﴿وَلا تَحْزَنْ﴾.. أي لا حاجة للقلق على هلاكهم لأن الله تعالى لن يضيع بذرة الخير، بل سينجيك وأهلك جميعًا من العذاب إلا امرأتك، وبالتالي ستنمو هذه البذرة وسيخضَرّ زرع الخير والصلاح في الدنيا.

وقد نسب الرسل إنقاذ لوط عليه السلام من العذاب إلى أنفسهم فقالوا: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾، وذلك لأنهم كانوا قد أُرسلوا إلى لوط من عند الله تعالى ليأخذوه وأهلَه إلى مكان آمن من العذاب.

ثم نسبوا إهلاك قوم لوط أيضًا إلى أنفسهم، فقالوا: ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، وقولهم هذا يماثل قولَ الملاك لمريم:

﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّاً﴾(مريم:٢٠)؛ مع أن الجميع يعرف أن الله تعالى هو الذي يهب الأولادَ لا الملائكةُ. فكما أن قول الملاك لمريم: ﴿لأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّاً﴾ يعني مجرد إخبارها بولادة الابن عندها وليس إعطاء الابن، كذلك فإن قول الرسل لإبراهيم: ﴿إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾، أو قولهم للوط:﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، أو قولهم في مكان آخر: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ۞ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ۞ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾(الذاريات: ٣٣-٣٥) لا يعني أنهم سيُنـــزلون العذاب، وإنما يعني إخبارهم بخبر العذاب بناءً على وحي الله تعالى وبأن لوطًا ومعظم أهل بيته سينجون من العذاب، بينما يهلك أعداؤه. أما العذاب فلم يُنـــزله عليهم إلا الله تعالى كما صرح في قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ۞ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾(هود:٨٣-٨٤)، كما نسب تعالى هذا العذاب إلى نفسه في هذه السورة فقال: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(الآية:٣٦). فهذه الآية صريحة في أن الله تعالى هو الذي أنـــزل عليهم العذاب، أما الرسل فلم يُنـــزلوا العذاب وإنما جاؤوا ليخبروا لوطًا بقرب نـــزول العذاب على قومه. لو كان الرسل هم الذين أنـــزلوا العذاب لما قال الله تعالى إنا تركنا من خلال هذا العذاب آية بينة لقوم يعقلون، لأن الرسل لو كانوا أنـــزلوا العذاب فهم الذين تركوا هذه الآية وليس الله تعالى. فثبت أن قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ وما شابهه من الآيات لا يعني أن الرسل أنـــزلوا العذاب، بل المراد أنهم أتوا بخبر العذاب على أهل تلك القرية، أما العذاب فلم يُنـــزله إلا الله تعالى.

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٨﴾

التفسير: أي بعد زمن لوط أرسلنا إلى قوم "مَدْيَن" أخاهم شعيبًا، فقال يا قوم اعبدوا الله وآمنوا باليوم الآخر ولا تفسدوا في الأرض.

ويبدو من قوله تعالى: ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أن القوم كانوا معتادين على أعمال السلب والنهب وسفك الدماء. كانت عاصمتهم أي "مدين" التي بُعث إليها شعيب عليه السلام تقع على الطريق المؤدي إلى الشام ومصر والجزيرة العربية، وكانت القوافل تمر بالقرب منها، فكانوا ينهبونها. ومما يؤيد هذا أنه كانت على مقربة من "مدين" غابةٌ كبيرة كثيفة، وقد سمى القرآن الكريم أهلها أصحاب الأيكة، وكان شعيب عليه السلام مبعوثًا إلى هؤلاء أيضًا (معجم البلدان للحموي: تحت كلمة: مدين). ومعروف أن الغابة تهيئ كمينًا سهلاً. إذًا، فكان هؤلاء القوم يفسدون في الأرض بالقتل والسلب والنهب ونقصان الوزن والكيل، فنصحهم شعيب عليه السلام، فلم ينصاعوا لنصحه وكذّبوه، فضربهم زلزال عنيف، فأصبحوا في ديارهم جاثمين.

لقد بُعث شعيب قبل موسى، وهكذا فإن الله تعالى قد قام إلى هنا بتغطية تاريخ الاختبارات التي مر بها الأنبياء وأتباعهم بدءًا من نوح إلى موسى – عليهم السلام.

وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٩﴾

التفسير: لقد بيّن الله تعالى هنا أن في قوم عاد وثمود آيات عظيمة، لأن هذين الشعبين زمنَ ازدهارهم كانوا أساتذة الدنيا، وكانت لهم يد طُولى في فن البناء

والعمارة، حيث نجد هودًا عليه السلام ينصح قومه عادًا ويقول: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ۞ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾(الشعراء:١٢٩-١٣٠).. أي أتقيمون على كل مكان عال تذكارًا وتبنون قصورًا فخمة ظانين أن هذا يكتب لكم الخلود؟

وقد رأيت بأُمِّ عيني بالقرب من مدينة عدن أنقاض مبان قديمة، وهي من آثار أمة عاد الأولى بحسب الروايات المحلية.

أما ثمود الذين كانوا فرعًا من عاد فقد قال القرآن الكريم عنهم: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾(الأعراف:٧٥). فلما عارضوا أنبياءهم واستحسنوا سيئاتهم دمّرهم الله تدميرًا، فلا توجد اليوم من قومهم ومجدهم إلا أطلال تُرى في الجزيرة العربية.

أما قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ فيوضح أنهم كانوا يقومون بأعمال شيطانية، ولكنهم استحسنوها بسبب اعتيادهم عليها دهرًا طويلاً، ورأوا جُذامهم الروحاني جمالاً؛ وكأنهم فقدوا البصيرة والإحساس، فلم يعودوا يرون شناعة أعمالهم، ولم يشعروا بمضرّتها.

أما قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ فيتضح منه أنهم كانوا على علم أن عاقبة أعمالهم ستكون وخيمة، ولكنهم اغترّوا بقوتهم، فكان مآلهم ما ترونه بأعينكم، إذ لم يبق منهم إلا آثار قلاع خربة ومبان متهدمة خالية من سكانها، مما يمثّل عبرة لمن اعتبر.

كما نبه الله تعالى بقوله: ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ إلى أن الإنسان لا يُعَدّ معذورًا إذا أغواه الشيطان، لأنه تعالى قد ترك طريق الوصول إلى الحقيقة مفتوحًا أمام الإنسان، كما صرح في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ۞ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ ۞ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾(البلد:٩-١١).. أي قد كشف الله على الإنسان طريق الهدى وطريق الضلال جيدًا، فمن سلك بعد ذلك طريق الضلال فهذا ذنبه، لأنه تعالى قد أعطاه لرؤية الحق عينًا مادية وعينًا باطنة؛ وإذا لم يتمكن من رؤية الحق بعينه المادية

ولا بعينه الباطنة فبوسعه أن يستعين بلسانه وشفتيه فيسأل العلماء درءًا لشبهاته، أما إذا لم يتبع سبيل الهدى رغم تيسُّر هذه الوسائل كلها فهو مسؤول عن هلاكه.

وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

التفسير: الحق أن قارون وفرعون وهامان قد جاءوا بعد عاد بفترة طويلة، ولكن لما كان ثمود – وهم فرع من عاد – مستوطنين في مدين في عصر فرعون موسى، ولذلك قد تحدث الله هنا بعد ذكر عاد وثمود عن فرعون وهامان أيضًا، ومن أجل هذا نجد أن موسى لما فرّ من مصر جاء إلى مدين إذ كان بها العرب. كما ذكر الله هنا قارون أيضًا لكونه من قوم موسى عليه السلام.

فيخبرنا الله تعالى أن موسى لما جاء بآياتنا فرعونَ وهامان وقارون تكبّروا وتجبّروا في الأرض وكفروا به، فلم ينفعهم كبرهم شيئًا لما جاءهم عذابنا ولم ينجوا منه.

ولقد أخذنا كل واحد من الشعوب المذكورة آنفًا جراء معاصيهم، فمنهم من أمطرنا عليه الحجارة كما حصل مع قوم لوط الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾(القمر:٣٥).. أي أرسلنا عليهم عاصفة من الحجارة، فدمرتهم جميعًا إلا آل لوطٍ؛ وكذلك قال الله فيهم: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ

سجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾(هود:٨٣).. أي وقع زلزال عنيف، فتشققت الأرض وتطايرت الأحجار في الجو ثم سقطت عليهم فدُفنوا تحتها.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾.. أي قد هلكت بعض هذه الشعوب نتيجة زلزال كقوم ثمود الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾(القمر:٣٢).. أي أنـــزلنا عليهم العذاب دفعة واحدة، فأصبحوا كحطام يخلّفه مَن يقطع أوراق الشجر لتهذيبها؛ وقال تعالى أيضًا فيهم: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾(هود:٦٨).. أي سقطت عليهم بيوتهم نتيجة زلزال، فماتوا تحتها ملتصقين بالأرض.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ﴾.. أي جعلنا بعض هذه الشعوب أذلة صاغرين في الأرض، كقارون الذي قال الله فيه: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾ (القصص:٨٢).. أي أنـــزلنا عليه وعلى قبيلته أنواع البلايا وجعلناهم أذلة صاغرين.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾، ومثاله قوم نوح الذين أُغرقوا في مياه الطوفان، ومثاله الآخر فرعون الذي أُغرق في البحر.

أما قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ فبيّن فيه أنه لم يُهلك أيًّا من هذه الأمم ظلمًا، بل يشهد التاريخ على أن كل أمة منها هلكت نتيجة معاصيها، ولم يظلمها الله أبدًا.

مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا

يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٍۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤٣﴾
وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴿٤٤﴾

التفسير: بعد ذكر هلاك هذه الأمم الخالية بيّن الله تعالى سبب هلاكهم، فأخبر أنهم لم يهلكوا إلا لأنهم اتخذوا ملاذًا من دون الله تعالى، فمنهم من قال إن هامان ذو عزة ونفوذ إذ يحكم على مئات الآلاف من البشر، فلو كسبت رضاه لكنت من الفائزين. ومنهم من قال إن قارون ذو ثراء، فعلي أن أسعى للحظوة عنده وإلا سأموت جوعًا. ومنهم من قال في نفسه لا شك أن هامان وقارون من علية القوم، ولكن فرعون مصدر القوة كلها، فعلي أن أكون من خدامه المطيعين؛ لأنه لو رضي عني فرعون لم يجرؤ هامان وقارون على إيذائي. وهذا ما حصل في زمن عاد وثمود أيضًا؛ إذ لم يجد قوم عاد مع هود عليه السلام مالاً ولا ثراءً ولا قوةً ولا رجالاً، فقالوا في أنفسهم: ماذا عسى أن ينفعنا الإيمان به وطاعته؟ علينا أن نتقرب إلى ملوك عاد لنرفع مستوى حياتنا، وننجو من المعاناة والبلاء. ثم إن قوم ثمود أيضًا سلكوا نفس المسلك ضد صالح عليه السلام، فاتخذوا صناديد قومهم ملاذًا لهم. وباختصار إن كلاً من هؤلاء الأمم تركوا الله تعالى واتخذوا ملاذًا خياليًا، ولكن ما يدريهم أن ملاذهم هذا أضعف من بيت العنكبوت وسيتمزق عند الاختبار، فلن يغني عنهم فرعون ولن ينجيهم هامان ولا قارون من عذاب الله. وبالفعل عندما غرق فرعون مع جنوده لم يغن عنهم إلههم الزائف هذا، ولم ينقذ جنوده من الغرق. وأنى له أن ينقذ أحدًا وقد غرق بنفسه مع القوم الذين اتخذوه ملاذًا لهم؟ فتبيّن للدنيا أن الذين يتخذون ملاذًا من دون الله تعالى إنما يقتربون من الهلاك شأن العنكبوت الذي يظن وهو جالس في بيته أنه في مأمن من نوائب الدهر.

لقد نبه القرآن الكريم المسلمين مرارًا إلى هذا الأمر البالغ الأهمية فقال: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾.. أي اتخذوا الله وقايةً لكم ووسيلة لنجاتكم. لا بأس في اتخاذ الأسباب والتدابير، لأن الله تعالى هو الذي خلقها وأمركم باتخاذها، ولكن لا تظنوا أبدًا أنها

هي كل شيء، إنما النصر من عند الله تعالى، ولولاه لما نفعت الأسباب أيضًا. هل كان عند عاد وثمود قلة في الوسائل والأسباب؟ هل كان عند قارون وفرعون وهامان نقص في القوة والمنعة؟ وهل أنقذهم أسبابهم وقوتهم من عذاب الله؟ فمن الغباء الشديد أن يعتمد المرء على الأسباب ويعتبرها وحدها وسيلة لنجاته. إن المقام اللائق بالمؤمن هو قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(الفاتحة:٥).. أي عليه أن يعبد الله وحده بصدق القلب ويستعين به هو، لأن الاحتياج إلى الله عبادة والاحتياج إلى العباد ذلة؛ أما إذا أغلق المرء في وجهه هذا الباب الوحيد للنجاح حلّق الهلاك على رأسه، ورأى خيبة آماله بمنتهى الحسرة.

وبذكر مثال بيت العنكبوت قد لفت الله أنظارنا إلى أمر آخر أيضًا، وهو أنه كما لا ينفع العنكبوتَ مجردُ إطلاق "البيت" على بيته، كذلك لن ينجي المرءَ دينُه إذا لبسَ عباءته دون العمل به، وإنما يؤدي الدين إلى نجاته إذا تولّدت فيه تلك الروح التي يريد الدين خَلْقَها فيه. أما إذا اطمأن المرء بانتمائه إلى الدين في الظاهر دون أن تتولد هذه الروح بل رغب عن الله تعالى إلى ما سواه عمليًا فلا شك في غبائه كالعنكبوت الذي يعتبر بيته بيتًا.

الحق أن هناك آلاف الأديان في العالم، وأتباع كل دين يختلفون مع غيرهم اختلافًا شديدًا، ولكنهم، رغم مئات الاختلافات بينهم، متفقون جميعًا على أن الغاية الحقيقية للدين هو التقرب إلى الله تعالى. وإذا كان هو الهدف الأساس من الدين، فمن واجب كل إنسان أمين أن يفحص أعماله ويحاسب نفسه كل حين، ليرى مدى ما اقتطفه من الثمار التي ينبغي اقتطافها بالعمل بتعاليم الدين الحق. وقد أشار المسيح الناصري عليه السلام إلى هذا الأمر الهام حين قال إن الشجرة تُعرف بثمارها (لوقا ٦: ٤٤). بيد أن قوله عليه السلام هذا لا يعني أن الشجرة التي ليس عليها ثمر لا يمكن معرفتها. ذلك أن الفلاح العادي الذي ليس بستانيًا أيضًا يعرف الشجرة وإن لم يكن بها ثمر، لأن أوراق كل شجرة تختلف عن الأخرى في أوراقها وأغصانها، فمثلا إن ورقة المانجو مختلفة عن ورقة الرمان، وورقة التوت مختلفة عن ورقة اللوز، وورقة البرتقال مختلفة عن ورقة التفاح. صحيح أن أحد سكان البنجاب قد لا يعرف

أشجار أفغانستان وكشمير، ولكنه يعرف عامة الأشجار التي تنبت في منطقته وإن لم يكن عليها ثمر. إذًا، فقول المسيح عليه السلام هذا لا يعني أن الشجرة لا يمكن معرفتها ما لم يكن عليها ثمر، وإنما يعني أن قيمة الشجرة وجودها إنما تُعرف إذا أثمرت. فمثلاً إن بعض شجر المانجو تحمل ثمرًا رديئًا لا يؤكل بل يصنع منه المخلل فقط، وبعضها تحمل ثمرًا أردأ من أن يصنع منه المخلل أيضًا، بينما تحمل بعضها ثمرًا عالي الجودة غالي الثمن. فمع أن كل هذه الأشجار تسمى أشجار المانجو، ولكن بعضها ينتج ثمرًا غالي الثمن، وبعضها ثمرًا رديئا جدًّا، فيقطعها البستاني ويزرع مكانها شجرة أخرى.

كذلك الدين، فهو أيضًا يحمل ثمرًا، فإذا اجتنى المرء منه هذه الثمار أمكن القول إنه تابع الدين الحق، أما إذا لم يجنها فلن ينال النجاة بانتمائه إلى الدين باللسان فقط. لقد كان هناك حواريي للمسيح عليه السلام قد باعه بسبع أو ثماني روبيات. لقد قلتُ إنه باع المسيحَ عليه السلام، ذلك لأن الشرطة كانت تبحث عنه عليه السلام، ولكنه كان لا يقع في يدها، لأنه كلما علِم بمجيء الشرطة تنكر واختفى. لقد قام المسيح بالدعوة العلنية بين القوم عدة سنوات، وكان الناس يحضرون خطبه، فلا يصح القول أن الشرطة لم تعرفه. كانت تعرفه ولكن المسيح عليه السلام كان يعيش متنكرًا متخفيًا بحيث لم يعلم الناس بمكان إقامته. وذلك كما فعل الرسول ﷺ أثناء الهجرة حيث خرج من مكة متنكرًا ملتفًّا بردائه كي لا يعرفه أحد. وورد في الروايات أن شخصًا سأل أبا بكر أثناء الهجرة مشيرًا إلى النبي ﷺ: من هذا الرجل الذي معك؟ فقال هاد. ولفظ الهادي يمكن أن يفسَّر بمعنى السيد أو الدليل الذي يدل على الطريق؛ فظنّ السائل أن أبا بكر يعني أنه الدليل الذي يهديه الطريق المادي، فسكت، وهكذا أخفى أبو بكر على الرجل حقيقة الأمر بدون أن يكذب (تاريخ الخميس: المجلد الأول ص ٣٣٥، قصة الغوسجة). كذلك يبدو أن المسيح عليه السلام كان ينتقل من مكان إلى مكان متنكرًا في ثياب مختلفة كي لا يُعرف، فارتأى رجال الشرطة أن يستعينوا ببعض حوارييه، فأعطوا يهوذا الأسخريوطي ثلاثين درهمًا كرشوة وضمّوه إلى صفّهم. فقال لهم إن الذي سأقبّله في المجلس هو المسيح. فجاء إلى

مجلس المسيح عليه السلام، وقال أيها الأستاذ، ثم قبّل يده، فألقت الشرطة القبض عليه عليه السلام. (متى ٢٦: ١٤-١٦ ومتى ٢٥: ٤٧-٥٠)

فترى أن يهوذا كان مؤمنًا في الظاهر وكان يعتبر نفسه واحدًا من حواري المسيح عليه السلام، ولكنه سلّمه إلى الشرطة من جراء شقاوته. وكان يأكل الطعام مع المسيح قبل تسليمه للشرطة، فقال عليه السلام بناءً على وحي الله تعالى إن الذي يأكل معي في هذه الصحفة هو يسلّمني، فأدرك يهوذا الأسخريوطي أنه يشير إليه، فقال: أيها الأستاذ كيف يمكن ذلك؟ قال عليه السلام: هذا قدر الله الذي لا بد أن يقع. وهذا ما حصل بالفعل، حيث باع يهوذا المسيحَ عليه السلام بسبع روبيات ونصف، مع أن أرذل الصعاليك أيضًا لا يدلّون على زملائهم رغم إغراء كبير لهم من قبل الحكومات. أما هذا الحواري فسلّم هاديه نظير هذا المبلغ الزهيد.

إذًا، فلبسُ المرء عباءة الدين أو فرحه بدينه وحده لا ينفعه شيئًا. فكما أن بيت العنكبوت أيضًا يسمى بيتًا في الظاهر، ولكنه عار عن مواصفات البيت عند الجميع، كذلك فإن مجرد انتماء المرء إلى الدين الحق لا يضمن له النجاة، بل لا بد له أن يتبتل إلى الله تعالى عما سواه، ويقيم صلته به وحده حتى ينال النجاة، وإلا فإنه يخفي رأسه في بيت العنكبوت.

الحق أن التدبر يكشف لنا أن الدين - الذي يولع به معظم الناس - ليس فيه إلا غاية واحدة فقط، وهي أن يتم الوصال بين الله والعبد. ذلك أنه توجد في الناس حسنات كثيرة، وسيقومون بها ويأمرون الآخرين بها وإن لم يكن هناك دين. خذوا مثلاً حُبّ الوالدين، فإن الملحد يحب والديه كما يحب الفلسفي والديه، وإن الشخص الجشع الذي يريد أن يملأ بيته ولو بسلب أموال الآخرين تلمع عيناه أيضًا برؤية والديه؛ وإن الصعاليك السفاكين أيضًا يحبون والديهم، بل بعضهم لا يكون متعطشًا للدماء وقاطعًا للطرق إلا انتقامًا من البعض الذي قد ظلم أبويه أو أخاه أو أخته أو قريبه الآخر. وإن الدين أيضًا يعلّمنا حب الوالدين واحترامهم. ثم إن الدين يأمر الزوجين بالحب والاحترام المتبادلين، ولكن الواقع أنهما سيتبادلان الحب والاحترام وإن لم يكن هناك دين. ثم إن الدين ينهى عن الكذب، والحق أن الناس

سيعافون الكذب ولو لم يكن هناك دين، فإنك تجد أن القبائل الأفريقية القديمة التي لا دين لها ولا تؤمن بالله ولا برسول أو كتاب تعلن أن الإنسان الشريف يتجنب الكذب. ولا شك أن الدين ينهى عن السرقة، ولكن هذا ليس خاصًا بالدين، لأن الذين لا دين لهم أيضًا يستنكرون السرقة. ثم إن الدين ينهى عن القتال والفساد والغيبة والتباغض والحقد، ولكن الواقع أن الإنسان الشريف سيتجنب هذه المساوئ وإن لم يكن هناك أي دين. فكل هذه الأمور توجد عند أهل الدين وأيضًا عند الذين لا دين لهم. والشيء الوحيد الذي يوجد عند أهل الدين ولا يوجد عند من لا دين لهم هو فكرة ضرورة الوصال بالله تعالى. إن الذي لا يؤمن بدين لا يفكر في الوصال بالله تعالى، سيقول ما الداعي للوصال بالله؟ أو سيُنكر وجود الله تعالى أصلاً، بينما يرى المؤمن بأي دين ضرورة الوصال بالله تعالى.

ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هو: كم من الناس يتحلون بهذه الميزة الفريدة في الدين؟ كم منهم يوجد عنده الإحساس بضرورة التعلق بالله تعالى كما ينبغي؟ ستجد أن ٩٩ بالمئة بل ٩٩٩ بالألف بل ٩٩٩٩٩ بمئة الألف أو أقل من ذلك أيضًا يؤمنون بدين، ولكن لا يوجد عندهم حب الله تعالى، وليس هذا فحسب بل ليس عندهم الإحساس بضرورة حبه تعالى. إذًا، فكيف يمكن القول إنهم آمنوا بالدين – أيا كان – بصدق؟ فلو كتبتَ على قارورة ماء "كعب الثعلب" اسم "روح كيورا"◈ فلن يتحول ما بداخلها إلى "روح كيورا"، ولو كتبت على قارورة ماء عادي "ماء الورد" فلن ينفعك شيئًا، إنما تقوم بالغش والخداع شأن العطارين الغشاشين، فعندما يتفشّى الملاريا وغيره من الأمراض عندنا يصف أطباء الأعشاب للمريض ماء "عنب الثعلب" أو ماء "كعب الثعلب" مثلاً، فيذهب أهله إلى العطارين، فيقول الأمناء منهم: لا توجد هذه المياه عندنا حاليًا، ولكن الغشاشين منهم يقولون: عندنا كل ماء: فعندنا ماء "كعب الثعلب" و"عنب الثعلب" و"الهندباء" و"الورد"، ثم يعطون قارورة مليئة بالماء العادي. كذلك لو سمّيتَ التراب

◈ عطر نباتي هندي يوضع في الطعام. (المترجم)

ذهبًا فلن ينفعك هذا الذهب، ولو سمّيتَ التهافت على الدنيا دينًا فلن ينفعك هذا الدين، وإنما ينفعك الدين إذا نشأت بينك وبين الله تعالى علاقة وطيدة. ومن لم يتيسر له التعلق بالله تعالى باعتناق دين ومع ذلك ظن أنه قد صار في مأمن فهو غبي كالذي يعتبر بيت العنكبوت بيتًا.

ثم يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾.. أي أنه تعالى يعلم جيدًا حقيقة ما يثق به هؤلاء القوم من دون الله تعالى. إنهم يتخذون أناسًا ضعفاء فانين ملاذًا لهم، بل يسجدون حينًا للأصنام المنحوتة من الحجر التي هي مجرد جماد، ويدعون أصحاب القبور مستعينين بهم حينًا آخر، ولكن الله تعالى يعلم جيدًا حقيقة الأشياء كلها. إن أكبر وأقوى ملوك العالم أيضًا لا يساوي أمام الله تعالى جناح بعوضة، فلو كان المرء صديقًا لأكبر ملك في العالم ومات بسكتة قلبية فلن يستطيع صديقه الملك إحياءه ولو أنفق خزائن الأرض كلها. ولو سقطت الصاعقة على أحد، أو غرق في النهر أو احترق بالنار، أو مات في حادث طائرة أو قطار أو سيارة، فمن ذا الذي ينجيه من الموت؟ لا شك أن الأطباء في الدنيا يملكون مهارة عالية في علاج الأمراض، ولكن إذا جاء نفسًا أجلُها من عند الله تعالى تخرج الروح من الجسد وهؤلاء الأطباء الكبار يقفون منبهرين عاجزين. فمن الغباء الشديد أن يثق المرء بملاذ زائف ويمدّ يده إلى ما سوى الله تعالى معرضًا عنه.

أما قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فبيّن فيه أن المرء لن ينجح إلا إذا كان على صلة بالذي هو غالب، كما قال بعض شعراء الفارسية:

"يارِ غالب شَو كه تا غالب شوى"

أي كُنْ صديقًا لمن هو غالب تكن غالبًا. ولا شك أن لا غالبَ إلا الله تعالى، إلا أن الغلبة وحدها قد تؤدي إلى ظلم الآخرين، ولذلك قد أوضح الله تعالى هنا أنه ليس عزيزًا فحسب، بل هو حكيم أيضًا.. أي أن أفعاله وأحكامه كلها مليئة بالحكم، فلا إمكانية لأن يظلم ﷻ أحدًا أو يهضم حق أحد. فإنما سلامة الإنسان في أن يترك كل ملاذ خيالي هو كبيْت العنكبوت، ويقيم صلته مع الله العزيز الحكيم.

وقال الله تعالى في آخر هذه الآية: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ﴾، فبيّن أنه قد قام بسرد وقائع قارون وفرعون وهامان وغيرهم، ولكن لن ينتفع منها إلا مَن عنده خشية الله، أما الآخرون فيستمرون في إنكار الأنبياء متبعين خطوات فرعون وهامان وقارون وأمثالهم.

واعلم أنه ليس المراد من ﴿العالمون﴾ هنا علماء العلوم المادية، بل العلماء الذين يخشون الله تعالى، والذين قد صرّح عنهم في آية أخرى فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر:٢٩).. أي لا يخشى اللهَ من عبادهِ إلا الذين عندهم إدراكٌ بصفات الله تعالى.

خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٤﴾

التفسير: لقد قدّم الله تعالى هنا خلق السموات والأرض كدليل على كونه عزيزًا وحكيمًا؛ فكأنه قال: أيها الناس إذا كنتم لا ترون في دمار الشعوب الجبّارة دليلاً على كوني عزيزًا حكيمًا ففكّروا في خلق السموات والأرض، فستجدون أني قد خلقتها بحسب قانون محكم لا تبديل له.. أي أن الله تعالى قد سنّ في الكون نواميس ثابتة لا يقدر أحد على تبديلها. فبوسع الملحد أن ينكر الله بلسانه، ولكنه لا يستطيع أن يغير ما وضعه الله العزيز للسانه ولآذانه من قوانين، فمثلاً لو أراد أن يتكلم بالآذان ويسمع باللسان، أو أن لا تحرق النار جسده، أو أن لا يبرّد الماء البارد جسده، أو أن يُحدث تغييرًا في أفعال الشمس والنجوم، فلن يستطيع ذلك أبدًا. وإذا أكل الفلفل الحار جدًا فإن قانون الإله العزيز سيعمل عمله حتمًا ويعاقبه بإصابته بالدوسنتاريا، وإذا أراد علاجه بعد ذلك فأيضًا لا بد أن يخضع لقانون آخر وضعه الله تعالى لإبطال تأثير الفلفل. فثبت أن قانون الله غالب عليه في كل حال. كما أن خلق السماوات والأرض دليل على أن الله حكيم أيضًا، لأن جميع العلوم

تتأسس على ما يوجد في الأشياء من خواص غير متبدلة للأشياء وعلى النواميس الطبيعية التي لا تبديل لها. فمثلاً لو أحرقت النار مرة و لم تُحرق مرة أخرى، أو لو أزال الماء ظمأ المرء مرة وأضرم النار في بطنه مرة أخرى، لما ازدهر العلم أبدًا.

إذًا، فكما أن هلاك أعداء الأنبياء دليل على كون الله تعالى غالبًا وحكيمًا، كذلك فإن النواميس غير المتبدلة في السموات والأرض أيضًا دليل على أن الله تعالى غالب على كل شيء.

هذا، وقد لفت الله تعالى بذكر خلق السموات والأرض نظر الناس إلى أنهم لو تفكروا في هذا الكون الهائل لأدركوا أن الله تعالى لم يخلقه عبثًا. لو كانت غاية هذا النظام الهائل أن يقضي الإنسان في الدنيا أيامًا في الملذات ثم يفنى للأبد لعُدّ هذا النظام كله عبثًا. فثبت أن خلق السموات والأرض في حد ذاته دليل على أن الإنسان قد خُلق لغاية عظيمة، وأن الموت ليس إلا اسمًا لانفصال الروح عن الجسم، وإلا فإن الحياة غير محدودة وأن أعمال كل إنسان ستحدد له طريق الرقي أو الانحطاط في المستقبل.

كما نبّه الله تعالى بذكر خلق السموات والأرض أعداءَ الأنبياء إلى أن الأرض لا تقدر على كشف قدراتها وطاقاتها بدون السماء، كذلك فإن الذين يظنون أنهم ليست بهم حاجة إلى هدي السماء بل سيحرزون الرقي باستخدام عقولهم فإنهم يُهلِكون أنفسهم بأيديهم. إن الأرض لا تعمل إلا إذا كانت فوقها السماء؛ كذلك فإن أي عقل إنساني لا يكفي للهداية ما لم ينـــزل عليه ماء الوحي والإلهام من السماء؛ فلو قطع الناس صلتهم عن ماء الروحانية لحُرموا من كل نفع كالأرض الميتة.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فبين فيه أن خلق السموات والأرض آية عظيمة بلا ريب، ولكن لا ينتفع منها إلا المؤمنون. ذلك أن التدبر في الكون يكشف للمرء أن مَثل كوكب الأرض إزاء النظام الشمسي كحبة برتقال أو

بندق في بستان كبير مثل "شاليمار"* أو هي أصغر من ذلك. أما النظام الشمسي مع كواكبه كلها فلا يساوي إزاء نظام النجم القطبي حبةَ بندق في بستان كبير. ثم إن نظام النجم القطبي لا يساوي إزاء الكون المعلوم حشرة ذبابة إزاء مدينة كبيرة. فلو أعمل الإنسان فكره وأدرك قيمة ذبابة إزاء الكون كله، ثم فكّر لماذا أراد الله تعالى أن يخلق الإنسان الذي لا يساوي إلا ذرةً غير مرئية إلا بالمجهر إزاء هذا الكون الهائل، بل هو أقل شأنًا منها ببلايين البلايين من المرات.. لاقتنع بحاجته إلى إنشاء صلة مع الله تعالى، ولأدرك مدى ضعفه وشدة حمقه إذ يصاب بالزهو والكبرياء! والحق أن الذي يقول لغيره مغترًّا بقوته: سأكسر أسنانك بلكمة واحدة، إنما مثله إزاء الملائكة كمثل قَدم النملة التي تقول – لو كان لها لسان – سأُدمر أمريكا بركلة واحدة، بل هو أضعف. فالإنسان لا يساوي شيئًا أمام الكون، حتى إن الطاغية الذي يبثّ الرعب في الرعية بإعلاناته المرعبة عندما يدخل في جسمه جرثومة لا ترى إلا بالمجهر لمرض السل أو الكوليرا فإنه يتقلب على فراشه في كرب وعذاب ويتوسل إلى الطبيب باكيًا بأن يعالجه بسرعة لأنه في ألم شديد. فترى أن هذا الملك الذي لا يـــأبه بأي إنسان في الدنيا يتوسل أمام هذا الطبيب الذي دخله لا يتعدى مئتين أو أربع مئة روبية، والذي لو أراد لقاءه في أيام صحته لما سمح له بالدخول عليه.

فعلى المرء أن يفكر في غاية خلقه، إذ لا بد أن هناك غاية ما من خلقه. يعلن القرآن الكريم أن الله تعالى لم يخلق شيئًا عبثًا وبدون فائدة، وإذا كان الأمر كذلك فعلى الإنسان أن يفكّر في غاية خلقه ويرى لماذا خلقه الله تعالى. ومن لا يفكر في ذلك فلا شك أنه يضيع حياته.

* "شاليمار" متنـــزّه عظيم في مدينة لاهور بباكستان بناه الملوك المغول، ولكنه قد فقد الآن الكثير من جماله وروعته. (المترجم)

ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٦﴾

التفسير: أي أن في خلق السموات آية عظيمة للمؤمنين، ولكن الكافرين لا يعرفون هذه الحقيقة، فاقْرأْ عليهم القرآن ليفهموا به الحقيقة وليهتمّوا بإقامة الصلة بالله تعالى.

الواقع أن مدار حياة المسلمين كلها على القرآن الكريم، ولم يصبهم الانحطاط إلا لأنهم اتخذوا القرآن مهجورًا، فتراهم لا يعملون به ولا يدْعون غيرهم إلى العمل به، مع أن حياتهم كلها في القرآن الكريم. إن القرآن الكريم غذاء روحاني أعدّه الله لنا، وكما أن الغذاء المادي أشكال وألوان، إذ نصنع من الدقيق فطائر حينًا، وأرغفةً رقيقة ناعمة حينًا آخر، وأرغفة سميكةً تَنُّورية حينًا ثالثًا، كذلك قد اتخذ الغذاء القرآني أشكالاً عديدة، فتارة يقدَّم لنا هذا الغذاء في صورة الصلاة، وتارة أخرى في صورة الصوم، ومرةً في شكل الحج، وأخرى في شكل الزكاة. وكأن هذا الغذاء الروحاني أصبح مرة فطيرًا وأخرى خليطًا من المكسرات، وتارة حلوى. إلا أن وجود هذا الغذاء وحده لا يغنينا شيئًا ما لم نتناوله ونمضغه ونبلعه ونهضمه بمساعدة المعدة والأمعاء. ولذلك قد اخترعتُ مصطلحَ "الاجترار الذهني".. أي لن نهضم هذا الغذاء الروحاني ما لم نقم بالاجترار الذهني. إنك ترى الحيوان يأكل طعامه بسرعة لأنه لا يستطيع أن يرعى في الغاب في كل حين، ولكن ليس في معدته نظام لهضم الطعام كما ينبغي، فيجلس بعد الطعام ويقوم بالاجترار حيث يُخرج لقمة من المعدة ويمضغها، ثم يخرج لقمة أخرى، ولا يزال يعيد هذه العملية باستمرار حتى يهضم طعامه. هذا هو مثال الاجترار الذهني أو الروحاني أيضًا. الواقع أن المرء يقرأ القرآن الكريم أو يقوم بتلاوته ولا يستطيع هضمه فورًا، إنما مثاله كالحيوان الذي

يرعى الكلأ بسرعة، أو كالإنسان الذي يضع في فمه لقمة تلو لقمة، ويبتلعها فورًا دون أن يمضغه، فيصاب بالتهاب الأمعاء والإسهال أو القيء الذي يخرج الطعام من جسمه. فالذين لا يقومون بالاجترار الذهني لا ينتفعون من هذا الغذاء الروحاني، ومن أجل ذلك قد شبه القرآن الكريم اليهودَ بحمار يحمل أسفارًا (الجمعة:٦). إن الذين لا يقومون "بالاجترار الذهني" فإنهم يقرأون هذا الكتاب ولكن لا ينتفعون منه لعدم تدبّرهم فيه. فلكي ينتفع المرء من القرآن الكريم لا بد له أن يمرر هذا الغذاء الروحاني بالمراحل التي تساعده على هضم مضامينه، وإلا لن يهضم هذا الغذاء. فبالإضافة إلى تلاوة القرآن الكريم لا بد من التدبر فيه ثم العمل به، فإذا فعلتم ذلك أصبحتم أمة تتمتع بالحياة والنشاط وستنبهر الدنيا برؤيتها. انظروا إلى الحديد كيف يصنع منه الأوروبيون أجهزة ومخترعات غالية الثمن، أما في بلادنا فلا يصنعون من الحديد إلا المطارق أو المقصّات أو ما إلى ذلك فقط. أما الذهب فكانت النساء في القديم يلبسن أقراطًا ثقيلة من الذهب فكانت آذانهن تتدلى وتتشوه وهن يظنَّ أنهن ثريات جدًا، ولكن البلاد الأوروبية قد صنعت من الذهب شتى الحلي الجميلة وباعتها للبلاد الأخرى وجلبت منها أموالاً طائلة. فثبت أن وجود شيء وحده لا يغني المرء شيئًا؛ فلا تفخروا بوجود القرآن بينكم، لأن السؤال الذي يفرض نفسه هو: إذا كان القرآن موجودًا عندكم فماذا انتفعتم منه؟ واعلموا أنكم إذا كنتم تنتفعون من قراءة القرآن فليس في الدنيا قوم أكثر سعادة منكم، أما إذا كنتم لا تنتفعون منه فليس في الدنيا قوم أشقى منكم، لأن جيوبكم مليئة بالذهب ولكنكم لا تنتفعون منه.

لقد جاء إليّ مرة طالبانِ من مدرسة "ديوبند" الشهيرة، وكانا قد سمعا من البعض أني لستُ خريج أي مدرسة. فجلسا في مجلس كان يضم بعض الأحباب، فسألني أحدهما الذي كان يبدو أكثر حماسًا: ما هو مستوى تعليمك؟ فأدركتُ أنه قليل الأدب، فقلت له: لم أدرس أيَّ شيء. فقال: أخبِرْني عن المدرسة التي تخرجت فيها؟ قلتُ: لو كنت خريج مدرسة لأخبرتك. قال: ألم تتخرج في أي مدرسة في الهند أو البنجاب؟ قلت: لقد أوضحتُ لك أن ما تراه تعليمًا فإني لم أحصّله من أي مكان.

فغمز على رِجله صديقُه – الذي كان يبدو أذكى منه – ليمنعَه من هذا السؤال، ولكنه كان متحمسًا فلم يسكت وقال: هذا يعني أنك لست عالمًا؟ فقلت: لقد أجبتك بحسب سؤالك، حيث سألتَني عن المدرسة التي تخرجتُ فيها والمنهج الدراسي الذي أكملتُه، فأخبرتُك أني لستُ خريج أي مدرسة و لم أكمل أي منهج دراسي، وإنما تعلمتُ من الكتاب الذي أُعطيَه محمد ﷺ والذي علّمه أتباعه وهو القرآن الكريم؛ فيمكنك أن تحكم الآن ما إذا كان محمد ﷺ عالمًا أم كان يجهل العلوم كلها. الحق أن النبي ﷺ قد جعل الناس علماء، ولا شك أنني لا أبلغ شأوَ النبي ﷺ، إلا أنني قد درست نفس الكتاب الذي درسه. فسكت هذا الطالب.

إذًا، فإن الناس يظنون أن المرء لا يُعَدّ عالمًا ما لم يدرس "سُلّم الشمس البازغة" و"الشروح الكافية" و"الشروح الشافية" و"الهداية" وغيرها من الكتب، مع أن هذه العلوم من منطق وفلسفة وغيرهما لم توجد في عصر النبي ﷺ، إنما كان هناك القرآن الكريم فقط. إن هؤلاء يريدون أن نترك الله تعالى ونتّجه إلى العباد، فإني عندما أقول لهم قد درستُ كتابًا مؤلّفه اللهُ ﷻ فلا يطمئنون أبدًا، ولكني لو قلت لهم إني قد درست كتابًا قد كتبه "البيضاوي" فيطمئنون تمامًا؛ وهذا يعني أن لا قيمةَ عندهم للكتاب الذي مؤلّفه الله ﷻ، مع أن القرآن الكريم هو وحده منبع العلوم والمعارف كلها.

ثم إن الله تعالى لم يحثّنا بقوله: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ على تلاوة القرآن والعمل به فقط، بل أمَرنا أيضًا أن نعرض هدي القرآن على أتباع الأديان كلها لنضمّهم إلى الإسلام. وكأن الله تعالى يوصينا أن لا نركز على الأشياء الأخرى عند دعوة الإسلام، بل نقوم بالدعوة بالقرآن نفسه.

لقد أهمل المسلمون هذا الأمر الرباني أيضًا كل الإهمال، مع أن الله تعالى يأمرهم: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾(آل عمران:١٠٥). والأُمّة هي جماعة لها نظام وهدف موحد. إذًا، فالله تعالى قد أمر المسلمين هنا أمرًا أبديًا أن يوجد بينهم دائمًا قوم ليس هدفهم طوال العمر إلا نشر دعوة الإسلام تحت نظام. والحق أن من الأخطاء الفادحة التي ارتكبها المسلمون في

تاريخهم الماضي أنهم اعتبروا الدعوة والتبليغ فريضة فردية. لا شك في وجود دعاة ومبلغين بينهم، بل قد كان فيهم دعاة حتى في الماضي القريب أيضًا، ولكن الدعوة المنظمة كجماعة قد انتهت فور وفاة النبي ﷺ تقريبًا، لأن الحروب ضد المسيحيين والزرادشتيين شغلت الخلفاء الراشدين بحيث اعتُبر الجهاد والدعوة شيئين منفصلين، ثم أدى الجمود الذي أصاب المسلمين بعد الخلفاء الراشدين إلى توقُّف مدّ انتشار دعوة الإسلام، واعتبر المسلمون العزة الدنيوية والتقدم المادي منتهى غايتهم، وشغلتهم العلوم الأخرى فاتخذوا القرآن مهجورًا، فحُرموا من حماس الدعوة ونتائجها. فأدى ذلك إلى غلبة المسيحيين الذين كانوا منهمكين في التبشير وضعف المسلمين الذين كان قد شغلتهم فكرة الجهاد عن الدعوة والتبليغ. مع أن الله تعالى يقول في مكان آخر من القرآن الكريم: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً﴾ (الفرقان:٥٣).. أي أيها المسلم جاهد الكافرين بالقرآن جهادًا كبيرًا. فالحق أن الجهاد الكبير إنما هو جهاد القرآن الكريم وجهاد التبليغ والدعوة الذي قام به المسيح الموعود عليه السلام في هذا العصر، حيث أثبت – من خلال كتبه – فضل الإسلام بعرض محاسن القرآن الكريم على العالم.

إذًا، لقد أمر الله تعالى هنا كل مسلم أن يأخذ القرآن بيده ويخرج للجهاد في العالم، وأن يتلو القرآن بنفسه ويعمل به كما يقرأه على الآخرين ويدعوهم للعمل به، وينشر من خلال القرآن أنوار الإسلام وبركاته بين القوم الذين لا علم لهم بمحاسن الإسلام ومزاياه، وأن يسعى جاهدًا ليقوم حكم القرآن وحكم الإسلام وحكم محمد ﷺ في كل مكان.

وعندي أن نـــزول القرآن الكريم باللغة العربية كان اختبارًا كبيرًا للمسلمين، لأن الله تعالى أراد بذلك أن يرى ما إذا كانوا يشيعونه في كل مكان أم لا. ولكنهم أخذوا يقولون من سوء حظهم أن ترجمة معاني القرآن الكريم كفر، وبتعبير آخر إن نشر القرآن الكريم في كل مكان كفرٌ. ولكن الله تعالى قد علّمَنا بواسطة المسيح الموعود عليه السلام أن ترجمة معاني القرآن الكريم ليس كفرًا، بل هو ضروري جدًّا، إذ كيف يفهم الناس ما أمرهم الله به بدون ترجمة للقرآن؟ توجد اليوم في الدنيا ألف

وثلاث مئة لغة، ولا بد من ترجمة معاني القرآن الكريم إلى هذه اللغات كلها، لأن القرآن قد نـــزل للناس جميعًا. وليس هناك فرد واحد لا يخاطبه القرآن، إذًا، فينبغي ألا يبقى في الدنيا فرد واحد لم نترجم معاني القرآن الكريم إلى لغته، حتى لا يقول أحد لله تعالى: ربّ، قد خلقتَني بين قوم لا يتكلمون العربية، والقرآن بالعربية، فأنى لي أن أتعلمه؟

بعد أن نصح الله المسلمين بتعلُّم القرآن وتعليمه وسماع القرآن وتلاوته على الآخرين وإرشاد الإنسانية كلها إلى الحق بالقرآن الكريم، قال الله تعالى الآن: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ﴾.. أي أن قراءة القرآن على الآخرين لا تكفي وحدها، بل لا بد أن تكونوا أسوة حسنة للناس وتقوموا بالدعاء لهم، فأقيموا الصلاة في الدنيا وادعوا للمؤمنين وغيرهم في صلاتكم بأن يفتح الله عيونهم.

ثم يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾.. أي أنها تنهى عن المساوئ التي تتعلق بذات الإنسان، وعن التي تُسيء إلى المجتمع أيضًا. ذلك أن الصلاة بالجماعة فرض على المسلمين خمس مرات يوميًا، ولو أقاموها لاستغرقت إقامتها كثيرًا من وقتهم الذي يتجنبون فيه الفواحش والسيئات؛ كذلك لو ظلّوا يدْعون الله تعالى في الصلاة لأنفسهم ولغيرهم لنـــزل عليهم فضل الله تعالى، مما يؤدي إلى إصلاح أنفسهم وإصلاح الآخرين والنهوض بهم. كما أن تلاوة آيات القرآن والتسبيح والتحميد الذي يتم في الصلاة بكثرة تؤثر على قلب المصلي بحيث يكره السيئات ويتنفَّر منها.

كما أن في التركيز على الصلاة بقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ إثرَ وصيته تعالى بتلاوة القرآن على الناس لإشارةً إلى أن الطهارة لا تتيسر بدون الدعاء. تستطيعون تغيير أفكار الناس بتلاوة القرآن عليهم، ولكن طهارة قلوب الناس مستحيلة من دون فضل الله تعالى، وهذا الفضل إنما يتأتى بالدعاء. فأقيموا الصلاة وأكثِروا من الدعاء لتحقيق الغاية التي أقامكم الله تعالى من أجلها.

لقد قال المسيح عليه السلام أيضًا في الإنجيل: "هذا الجنس لا يمكن أن يخرُج بشيء إلا بالصلاة والصوم" (مرقس ٩: ٢٩). غير أن هذا لا يعني أن الديانة المسيحية حق، فإذا وُجد في الإنجيل حكم جيد واحد، فإن جميع أحكام القرآن الكريم جيدة.

الحق أن هدف العبادة التعبير عن مشاعر الشكر لله تعالى، لأن الإنسان بفطرته يشكر من أحسن إليه، كما ورد في الحديث "جُبلت القلوبُ على حُبِّ مَن أحسنَ إليها" (الجامع الصغير للسيوطي: باب حرف الجيم حديث رقم ٣٥٨٠). إذًا، فإن أكبر أهداف الصلاة أن يُقرّ الإنسان بلسانه بنعم الله ماثلاً أمامه ﷻ. بيد أن هناك هدفًا آخر من الصلاة وهو أنها تُطهّر الإنسان من الذنوب والمعاصي كما ورد في هذه الآية. ذلك أن الله تعالى ليس بحاجة إلى أن يعبده الناس، بل إن الهدف الأساس في كل ما أمر الله تعالى من أحكام هو تطهير قلب الإنسان، لأن الله قدوس ولا يمكن أن يكون على صلة مع إنسان نجس. فجميع العبادات تهدف إلى تطهير النفس البشرية من السيئات، وشحن الإنسان بقوة تساعده على التخلي عن أهواء النفس بكل أنواعها، فتتوثق صلته مع الله تعالى من جهة، ومن جهة أخرى تصبح معاملاته مع خلقه على ما يرام. لقد بين الإسلام أنّ هدف الدين هو أنْ يقوّي صلة العبد بربه تعالى ويسوِّي صلته مع خَلْقه. وإذا عجز أي دين عن تحقيق هذين الهدفين فلا يحق له أن يسمى دينًا إذ لا يحقق الغاية وراء الدين. فالهدف الأساس للعبادات كلها تقريب العبد إلى الله تعالى وشحنه بطاقة تجنّبه الذنوب والمعاصي. والعبادات التي تحقق هاتين الغايتين هي التي تُعتبر نافعة، وإلا فهي مضيعة للوقت. وقد بيّن القرآن الكريم هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾. إذًا، فالصلاة ليست إقرارًا بعبودية الله تعالى فحسب، بل إنها تجلو قلب العبد وتساعده على تجنب الآثام، وتجعله نافعًا لبني جنسه. ولما ثبت أن الغرض الأساس من الصلاة هو إنشاء الصلة بالله تعالى وشكره وإصلاح النفس، فالعبادة التي تحقق هذين الهدفين هي العبادة الحقيقية، وبالتالي فإن الدين الذي يعلّم هذا النوع من العبادة هو الدين الحق.

إن الوسائل التي وضعها الإسلام في العبادة الإسلامية لتحقيق الغرض من العبادة لا توجد في عبادة أي دين آخر، وبإمكان كل إنسان أن يدرك بأدنى تدبر أن هذه هي الوسائل التي تضمن تحقق غاية العبادة. وإليك بيانها:

الأول: اعلم أن هناك صلة وثيقة بين جسد الإنسان وروحه بحيث يؤثّر أحدهما على الآخر. فمثلاً إذا سمع الإنسان خبرًا محزنًا تأثر بدنه وبدت فيه أمارات الهم والحزن. كذلك إذا أُصيب جسده بأذى أصبحت نفسه حزينة مكتئبة؛ وهكذا تمامًا تتفاعل روحه وجسده في حالة الفرح أيضًا. فلكي يتوجه قلب العابد إلى الله تعالى لا بد أن يكون جسده أيضًا أثناء العبادة في حالة تواضع وتذلل لتتفاعل به روحه فتلين وتذوب فيتوجه الإنسان إلى الله تعالى بلهفة وشوق. وفي الدنيا أشكال شتى لإظهار منتهى التذلل والتواضع، فبعض الشعوب ينحنون، وبعضهم يقفون مربوطي الأيدي، وبعضهم يخرّون على الركب سجدًا؛ ولما كان الإسلام من عند خالق الفطرة الإنسانية فقد جمع في الصلاة كل هذه الطرق للتذلل مراعاة لشتى عادات الناس وطبائعهم؛ فيجد كل مصلّ في الصلاة حالة للتذلل تتلاءم مع مزاجه ومذاقه. والواقع أن هذه الصور المختلفة الدالة على منتهى التذلل تترك وقعًا عميقًا على قلب الإنسان، فيمتلئ حماسًا وشوقًا لله تعالى؛ فيخضع أمامه تمام الخضوع. وإنه لمشهد رائع وجدير بالرؤية حين يكون المسلم ماثلاً أمام الله رب العالمين، فحينًا يربط أيديه قائمًا، وحينًا يخضع أمامه راكعًا، وحينًا يرسل أيديه واقفًا، وحينًا يخرّ أمامه ساجدًا، وحينًا يقعد على ركبتيه جالسًا، فيغمر قلبَه ذلك الحبُّ الذي يمكن أن يكون بين الخالق والمخلوق، فيُقرّ بلسان حاله قائلاً: ربّ، ها إني أقرّ أمامك بعبوديتي لك، من خلال جميع الطرق والأشكال التي تعبّر بها مختلف الشعوب عن عبوديتها لك. وإن هذا المشهد لا يؤثّر في قلب المصلي فقط، بل يؤثّر في قلب المشاهد أيضًا، فيجذبه هو الآخر نحو الله تعالى.

الثاني: والطريق الثاني الذي وضعه الإسلام لتحقيق هدف الصلاة أنه اعتبر الدعاء لُبَّ الصلاة، حيث ورد في الحديث: "الدعاء مُخُّ العبادة" (الترمذي: أبواب الدعوات،

باب فضل الدعاء). والحق أن في الدعاء تأثيرًا مغناطيسيًا يجذب العبد نحو الله تعالى من جهة، ومن جهة أخرى يهيئ له الأسباب التي تسهّل عليه تجنُّبَ المعاصي. ذلك أن الوالدين والحكّام ما داموا يقبلون التماسنا ورجاءنا فكيف يُتصور أن الله الذي هو أرحم الراحمين سيرفض دعاء عباده؟ ما هي الصلاة؟ إنما هي مجموعة أدعية. إنها تولّد في قلب الإنسان حب الله تعالى من ناحية، ومن جهة أخرى تحظى بها أدعية الإنسان بالقبول عنده تعالى، فتزيده هدى وتساعده في فعل الخيرات.

الثالث: والطريق الثالث الذي علّمه الإسلام في سبيل تحقيق غاية العبادة هو التدبر في قدرة الله تعالى. ذلك لأن الإنسان إذا لم يتيسر له علم كامل بشيء لم تتوثق صلته به، فمثلاً إذا لم يدرك الإنسان أهمية العلم لم يجتهد لتحصيله، أو إذا جهل تأثير السمّ لم يَخَفْ من تناوُله.

إذًا، فإن الإنسان في حاجة ماسة إلى معرفة تامة بالله تعالى حتى تتوثق صلته به ﷻ، ويتجنب السيئات؛ ولذلك قد فرض الإسلام على المصلي قراءة عبارات معينة تكشف عليه جلال الله ومحبته، فيخرّ له ساجدًا ويمتلئ قلبه بخوف الله وحبّه. ذلك لأنه عندما يُذكَّر المصلّي في وقت واحد بنعم الله وبنتائج عصيانه والإعراضِ عنه، تستولي عليه حالة من التبتل إلى الله فيتقرب إليه تلقائيًا. وقد أشار النبي ﷺ إلى هذه الحالة فأخبر أن أدنى درجة في الصلاة أن تعبد الله كأنه يراك، وأن أفضل درجة فيها أن تعبد الله كأنك تراه بعينك.[٥]

لقد ثبت من هنا أن الصلاة ليست في حد ذاتها غاية، وإنما الغرض منها أن تنهى الإنسان عن الفحشاء والمنكر.. أي يمتنع الإنسان عن السيئات في حياته العملية، أما الغرض الروحاني من الصلاة فهو أن يتراءى الله تعالى للمصلي حتى يشعر أنه يرى الله تعالى.

---

[٥] نص الحديث هو: "الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ." (البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل) (المترجم)

وهناك سؤال يطرح نفسه حول قول النبي ﷺ: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"، وهو: حيث إن الله تعالى يرى الإنسان في كل حال، فهل يعني هذا أن الإسلام يقول أن الله تعالى يرى المسلم ولا يرى المسيحي أو الهندوسي أو السيخي؟ أو أنه تعالى يرى زيدًا الذي يصلي ولا يرى بكرًا الذي لا يصلي؟ ولو صح أن الله تعالى يرى العبد وهو يصلي فقط لاعتبر كثير من ضعفاء الناس ترك الصلاة أفضل لهم قائلين: لا نصلي حتى لا يرانا الله تعالى.

أما لو فُسّر قول النبي ﷺ هذا بأن الله تعالى لا يرى الإنسان في الواقع، ولكنه ﷺ أمرَنا أن نظن أن الله يرانا، لكان هذا كذبًا إذ نخدع أنفسنا ونتصور في أذهاننا تصورًا باطلاً.

فثبت أن كلا المعنيين باطل، فلا يمكن أن نفسر قول النبي ﷺ هذا بأن الله تعالى لا يرانا عادة ولكنه يرانا حين نصلي، كما لا يمكن أن نفسره بأن الله لا يرانا حقيقة ولكن علينا أن نظن أنه يرانا.

إذًا، علينا تفسير قوله ﷺ بما يتفق مع تعاليم القرآن الكريم، وهذا المفهوم هو أن نعتبر قوله ﷺ "كأنك" بمعنى "أن توقن".. أي عليك أن تعلم يقينًا بأن الله تعالى يراك. وشتان بين علم اليقين وبين الخيال والوهم. وإذا تصور أحد في صلاته أن الله يراه، بينما أيقن الآخر في صلاته بأن الله يراه، فبرغم أن كل واحد منهما يرى بأن الله يراه، إلا أن رؤية أحدهما مبنية على الوهم والباطل، أما رؤية الآخر فَمَبنية على أسس متينة من اليقين؛ إذ يمكن زعزعة الشخص الأول من تصوره بكل سهولة، ولكن الشخص الثاني الموقن تمامًا في صلاته بأن الله يراه فلا تقدر قوة في الدنيا على زعزعته.

فثبت من هنا أن النبي ﷺ لا يعني بقوله هذا أن عليك أن تتصور في صلاتك أنك ترى الله تعالى وإن لم يكن الأمر كذلك، وإنما المراد من قوله ﷺ أن أدنى درجة يجب أن ينالها المؤمن في صلاته هي أن يوقن يقينًا كاملاً أن الله يراه، ذلك لأن الرؤية لا تعني هنا معناها المعروف بل لها معنى خاص، والدليل على ذلك أن الله يرى المؤمن والكافر والمسيحي والهندوسي على سواء، ويرى المصلي وغير المصلي

أيضًا؛ فإذا أيقن المصلي أن الله يراه فلن يكون له أي خصوصية، لأن الله كما يراه فإنه يرى الكافر والمنافق أيضًا، وإنما يمتاز المصلي بالخصوصية إذا فُسرت رؤية الله تعالى هنا بمعنى خاص، وهو رؤيةُ حفاظة ونصرة؛ ومثاله قول الله تعالى لرسوله في القرآن الكريم: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ (الطور:٤٩).. أي أنك أمام أعيننا، فسبِّحْ بحمدنا حين تقوم للصلاة. فكون النبي ﷺ أمام أعين ربه لا يعني أن عدوه ﷺ لم يكن أمام أعينه تعالى، إنما المعنى أنك يا محمد قد بلغت درجة من قربنا بحيث سنرعاك رعاية خاصة فلن يستطيع أحد أن يهاجمك فيؤذيك ويهينك. فكما أن الحارس لا يقف مكتوف اليدين إذا أراد أحد الهجوم على من وُكّلت إليه حراسته، كذلك قد نزلتَ منا منـــزلة بحيث لن نسكت إذا حاول أحد الهجوم عليك. وذلك كما نرى في الدنيا أن المرء إذا لم يُرد الدفاع عن شخص غضّ الطرف عنه، ولكنه لو أراد الدفاع عنه قال للناس: إنه يراه.

باختصار إن قول النبي ﷺ أن أدنى درجة في الصلاة هي "كأنه يراك" يعني أن يصلي المرء موقنًا يقينًا كاملاً بأن صلاته قد بلغت من الكمال بحيث إذا أراد به أحد سُوءًا فلن يسكت الله عليه؛ وذلك كما قال الله تعالى للمسيح الموعود عليه السلام في وحيه: "إني مُعِينٌ من أراد إعانتك، وإني مُهينٌ من أراد إهانتك" (آئينه كمالات إسلام (أردو)، الخزائن الروحانية المجلد ٥ ص ١١). وكأن العبد إذا بلغ هذا المقام فلا يترك الله تعالى من أحسن إليه بدون أجر، ولا يترك من أساء إليه بدون عقاب؛ فمن أحسن إليه جزاه الله تعالى أفضل مما أحسن، ومن أساء إليه عاقبه بأشد عقاب. وهذه أدنى درجة يجب أن يتبوأها كل مؤمن بحسب قول الرسول ﷺ.

أما الدرجة العليا منها فقد حثّ عليها النبي ﷺ بقوله: "أن تعبد الله كأنك تراه". وهذا أيضًا لا يعني أن يفترض المصلي أنه يرى الله تعالى، لأنه كذب ووهم، وكيف يوقن بالكذب والوهم؟ هذا أولاً، وثانيًا إذا كان المصلي ضعيف الإيمان لدرجة أنه يكون بحاجة إلى إقناع قلبه بأنه يرى الله تعالى، فما الفائدة من هذه المحاولة؟ فالحق أن قول النبي ﷺ "كأنك تراه" يعني أنه بعد بلوغ الدرجة الأولى في صلاته يصل المؤمن حيث تنكشف عليه حقيقة آيات الله، فيرى رحمة الله وفضله وإحسانه بعينيه

أيضًا. إذًا، فإن أعلى درجة في الصلاة هي أن يكون المصلي على يقين كامل أنه يرى الله تعالى. ولكن ليس المراد من رؤيته ربَّه ﷻ أن يفكر في صلاته أنه ماثل أمام تمثال وهو الله – كما يفعل الهندوس – لأن الإسلام لا يُعلّم الوهم ولا يريد أن يخلق في ذهن الإنسان تصورًا زائفًا، إنما يعلّمه أنه إذا قام في الصلاة فيجب أن يكون على يقين بأن الله تعالى يحسن إلى من يحسن إليه ويعاقب من يسيء إليه. فإذا تيسرتْ لك هذه الرؤية وأحسستَ أن الله تعالى يحسن إلى من يحسن إليك ويعاقب من يسيء إليك، أصبح حبك لله تعالى كاملاً وبلغت صلاتُك درجة الكمال.

إذًا، فإن الإسلام لا يعلّمنا الأوهام، بل يريد أن يأخذنا إلى درجة المعرفة واليقين. إنه يطالبنا أن نحسّن صلواتنا ونجعلها رائعة بحيث يحبنا الله حبًّا يُشعرنا أنه تعالى يحسن إلى من يحسن إلينا ويعاقب من يسيء إلينا. هذا من جهة، ومن جهة أخرى يرزق عيوننا من البصيرة وقلوبنا من النور بحيث نرى أن الله تعالى يُظهر آياته لتأييدنا. ومن بلغ هذا المقام نجا من الشكوك والشبهات كلها، وظهرت له آيات الله البينات وأيقن أن الله لن يضيعه أبدًا، وأن الدنيا يمكن أن تتركه؛ ولكن الله تعالى لن يخذله؛ إذ يرى آياته ويشاهد نعمه بأم عينيه. إن الجاهل لا يفهم هذا الأمر، ولكن الذي يرى الله تعالى بعينيه يقف على صخرة عظيمة من اليقين بحيث لا تقدر قوة في الدنيا على زعزعة عزيمته.

إنه لمما يبعث على الأسف أن فئة من المسلمين في هذا العصر لا يصلون، ليس لأنهم لا يؤمنون بضرورة الصلاة، بل لأنهم يظنون أن الله رحمن ورحيم وسيتغمدنا بمغفرته إذ ليست مغفرته إلا للخطاة والآثمين، وإذا لم يوجد هناك آثمون مثلنا فمن ذا الذي يغفر الله له الذنوب؟ وإنني لن أناقش هنا صحة هذا الاعتقاد أو خطأه إلا أن هذا ما يجيب به أصحاب هذه الفئة.

بينما توجد بينهم فئة أخرى تعتقد بأن الله تعالى قد أمر بهذه الأحكام في الماضي لإصلاح العرب فقط، إذ كانوا قومًا همجيين لا يهتمّون بالنظافة والطهارة، فأمرهم النبي ﷺ بنظافة ثيابهم وطهارة أبدانهم، وكانوا أمة مشتتة لم يوجد عندها نظام

فأمرهم الإسلام بحضور المسجد خمس مرات يوميًا. لقد أُمروا بحضور المسجد لأداء الصلاة في الظاهر، إلا أن الغرض الحقيقي أنهم إذا حضروا المسجد خوفًا من الله تعالى اطلعوا على أخبار قومهم وأحوال بلدهم، مما سيولد فيهم صحوة سياسية، فيسعون للتغلب على العالم.

أتذكر جيدًا أنني قرأت في طفولتي مقالاً بهذا المعنى نُشر في جريدة. كان هناك مسلم كبير وكان يُعتبر داعية، فقام بزيارة اليابان وأمريكا بقصد الدعوة والتبليغ، ولما رجع ألقى محاضرة في جامعة "علي غرة"، فنُشرت محاضرته في الجرائد وهي التي قرأتها. فمما قال في محاضرته إن الذين يقولون إن الصلاة حكم ضروري جدًا ولا بد من أدائها بالجماعة في المسجد خمس مرات يوميًا، لا يتدبرون في حقيقة الأمر، فلا يدرون أن الإسلام دين عالمي، وكان لأحكامه في الزمن القديم صبغة وقد اكتسبت أحكامه في هذا العصر صبغة أخرى. لا شك أن الأحكام ستبقى على حالها، ولكن أشكالها ستتغير بتغير الظروف. لقد كان العرب أمة جاهلة يعيشون حفاة ولم تتيسر لهم ثياب كافية، فأُمروا بالركوع والسجود على الأرض، أما في هذا العصر فقد تغير الوضع، فلو قام المرء بالركوع والسجود على الأرض لفسد كيٌّ بنطلونه؛ ولو كان محمد ﷺ في هذا العصر لعدّل هذا الحكم حتمًا ولقال: لا حاجة بكم للركوع والسجود، بل يكفيكم أن تُحنوا رؤوسكم قليلاً جالسين على المقاعد. والحال نفسه بالنسبة للصوم، إذ كان العرب قومًا وحشيين يأكلون الطعام أكلاً لَمًّا، فكانوا يصابون بالتخمة، فلذلك أمرهم الإسلام بالصوم، أما هذا العصر فهو عصر الحضارة ولا يفسد فيه الناس معدتهم بكثرة الأكل، فإذا تناول المرء الفطور صباحًا وأكل الكعك والبسكويت مساءً ولم يأكل وقت الظهيرة شيئًا، فيكفيه هذا صومًا. باختصار يوجد بين المسلمين اليوم قوم يعتبرون هذه العبادات غير صالحة لهذا العصر ولا حاجة لها اليوم عندهم.

بينما توجد بين المسلمين فئة ثالثة تقول إنما الصلاة هي صلاة القلب، ولا داعي لهذه الحركات الظاهرة؟ ولكن الحقيقة أن الصلاة هي صلاة الظاهر وصلاة الباطن أيضًا، والجمع بين الأمرين هو الذي يجلب البركة للإنسان. فلو قمنا بذكر الله تعالى

في القلب فقط و لم نؤد الصلاة الظاهرة لصار ذكر الله تعالى في القلب مجرد كذب وخداع؛ ذلك لأن المحب لمن يحبّ مطيع ولا يعصي أمره أبدًا. أفليس غريبًا أن نبدي لله حبًّا باللسان فقط من دون أن نقدم دليلاً عمليًا على حبّنا له؟ حيث نؤمن بأنه قد أمرنا بالسجود له ولكنا نرفض أن نسجد له!

بيد أن المرء إذا أدى الصلاة بالظاهر فقط بدون خشوع وحضور قلب فإنه لم يصلّ، وإنما قام بتمارين جسدية، ومثل هذه التمارين يمكن أن تقوّي جسمه كما تقوي جسم الجندي، ولكنها لن تعمر قلبه بنور الإيمان.

قبل فترة ذهبتُ إلى السند، فجاء أحد الهندوس لمقابلتي، وكان لم يهاجر إلى الهند عند انفصال باكستان حيث كانت له صلات حميمة مع المسلمين. فقلتُ له: لك صلات قديمة حميمة مع المسلمين، فهل تدبرتَ في دينهم مرة؟ فقال: كل دين يعلّم الخير، ودينكم جيد وديننا جيد أيضًا. فقلت: ما دامت كل ديانة تتضمن أحكامًا طيبة مماثلة فلماذا لا تنضم إلى المسلمين إذن؟ لا بد أن يكون هناك فرق مما جعلك هندوسيًا وجعلنا مسلمين. لو كانت في الديانتين أمور مماثلة لدخلتَ في الإسلام أو دخلنا في الهندوسية. فلا بد أن يكون هناك فرق مما جعلنا نحافظ على كياننا المنفصل. ثم قلت له: هل قمتَ بالمقارنة بين العبادات الإسلامية من صلاة وغيرها وبين عبادات ديانتك، لترى أيتهما أفضل؟ فقال: إن الكعبة والدير كلاهما في القلب، فما الحاجة من صلاة ظاهرة؟ فقلتُ له: أمتزوج أنت؟ قال: نعم. قلت: ألك أولاد؟ قال: نعم. قلت: أتُدلِّل زوجتك وتداعب أولادك؟ قال: نعم. قلت: إن الحب في القلب، فلماذا تُظهر لهم الحب؟ إنما تبدي لهم الحب لأنك ترى ضرورة إبداء علامة ظاهرة لهذا الحب. فإذا كنتَ ترى أن الحب الذي تكنّه في قلبك لزوجتك وأولادك لا يكفي وحده، بل لا بد من تقبيلهم ومداعبتهم، فلماذا تقول عن حب الله تعالى أن الكعبة والدير في القلب ولا حاجة لأي عبادة ظاهرة؟!

فالحق أن ظاهر العمل وباطنه كلاهما يجعل الإنسان كاملاً، ولا تأتي النتيجة المرضية بدون اجتماعهما. فمثلاً إذا حاولت أخذ أطيب طعام في إناء وسخ اتسخ الطعام أيضًا، وإذا حاولت أخذ الطعام بدون إناء سقط الطعام وضاع، فثبت أنه لا

بد من إناء، ولا بد من أن يكون نظيفًا، ثم لا بد أن يكون فيه شيء ما. هذا هو مثال كل العبادات من صلاة وصوم وحج وزكاة. فقد أمرنا الله تعالى بتقديم الأضاحي والقرابين، ولكنه تعالى أوضح لنا أيضًا وقال: ﴿لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾(الحج:٣٨). فبرغم هذا التصريح لم ينهنا الله تعالى عن تقديم القرابين، بل أمرنا أن نقدمها آخذين بعين الاعتبار أننا نقدمها عملاً بأمر حبيبنا وتحقيقًا للأهداف التي سنّ الله القرابين من أجلها، ومن هذه الأهداف مثلاً أن الفقراء الذين يعانون الجوع والفاقة أو الذين لا يجدون اللحم طوال السنة سيجدون لحمًا للأكل. وهذا يعني أن القرابين تُطهر قلب أصحابها وتخلق فيها مشاعر الحب والعطف على الفقراء والجيران ، كما توفقهم للعمل بحكم الله تعالى.

إذًا، فإن أهم واجب على المسلمين أن يواظبوا على الصلاة بالجماعة، لأن الذي ينسى حبيبه ولا يجدّد في قلبه ذكراه لا يحق له الادعاء بحبه. إن الحب الصادق لا يخلو من آثار ظاهرة أبدًا، ومن أكبر آثار الحب أن المحب يذكر حبيبه كل حين، ولا يزال يجدد ذكراه في قلبه. عندما يذكر المرء حبيبه يتجدد حبه في القلب وتتراءى صورته أمام عينيه، ومن أجل ذلك قيل: "المكتوب نصف الملاقاة".. أي إذا كتب المرء رسالة لبعض أصدقائه وأقاربه فكأنه قد قام بنصف لقائه. فعندما يكتب له: السلام عليكم ويبين له أحواله ويسأله عن حاله، فكأنهما يجلسان وجهًا لوجه ويجددان حبهما. فثبت أن الرسالة توثّق صلة المرء بحبيبه وقريبه كما يوثّقها اللقاء بينهما، فتنوب عن اللقاء. إن الصلاة أيضًا وسيلة للقاء الله تعالى، ولذلك قد فرض الإسلام على المرء أن يقف للصلاة على فترات قصيرة لذكر الله تعالى. لقد فرض الإسلام على المسلمين أداء الصلاة في وقتها حتى في حرب طاحنة دامية تنطلق فيها النيران من الطرفين، عليهم أن يخضعوا أمام الله تعالى فورًا في ذلك الوقت الحرج إن أمكن ذلك – علمًا أن الله أمر في حالة الهجوم الخطير من قبل العدو بجمع الصلوات التي لا يجوز جمعها في الظروف العادية، وقد جمع الرسول ﷺ نفسه أربع صلوات في إحدى المرات (البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الخندق) – لا شك أن الشكل الظاهر للصلاة سيتغير في حالة الحرب، ولكن لا يجوز ترك الصلاة.

ومن العيوب الكثيرة التي أصابت المسلمين في هذا العصر أنهم لا يصلّون إذا كانوا على سفر في القطار مثلاً، وإذا سئلوا قالوا لا نصلي لأننا لا نثق بطهارة ثيابنا في السفر. وعندي أنه لو كانت ثياب المرء كلها نجسة بالبول مثلاً – ليس حالة السفر فحسب، بل حال إقامته أيضا – ولم يكن عنده ثياب أخرى، وحان وقت الصلاة فعليه أن يصلي في الثياب النجسة أيضًا، أو إذا كان هناك سترٌ فيمكن أن ينـــزع ثيابه كلها ويصلي بجسم عارٍ، وليس عليه أن يبالي بنجاسة ثوبه أو بعريه. ذلك لأن الهدف من الصلاة إنما هو أن يذكر الإنسان ربه بعد كل فترة قصيرة، ويجدّد ذكراه في قلبه. وكما أن العطشان يرتشف في القيظ جرعة أو جرعتين بعد كل فترة إطفاءً لظمئه، كذلك قد جعل الله تعالى الصلاة على فترات ليروي روح الإنسان بطراوة الإيمان وحلاوته، لكي لا يلفح حرُّ الكفر روحه، فتضمحلّ قواه الروحانية. إن ذكر الله تعالى يجدّد حبه في قلب المرء، ويقرّب منه الملائكة، ويبعد عنه الشيطان. لا شك أن الله تعالى قد أمرنا بطهارة الثياب، ولكن إذا لم يكن عند المرء ثياب أخرى فلا يجوز له ترك الصلاة، وإنما يقال له: عليك أن تصلي حتى بالثياب النجسة. فمثلاً إذا كان عند المرء سروال واحد فأصابته نجاسة، فلا يسمح له الشرع بترك الصلاة وإنما الحكم فيه أن يصلي بالسروال النجس، لأن طهارة القلب مقدَّمة على طهارة الثياب، ولكن الناس عندنا يهتمون بطهارة الثياب ولا يهتمون بطهارة القلب. إن ترك الصلاة بسبب نجاسة الثياب يعني أننا نهتم بطهارة الثياب ولا نهتم بطهارة القلب. وهذا حمق وغباء، إذ يجوز للمرء في هذه الحالة أداء الصلاة في أي ثوب متيسر، ولكن لا يجوز له أن ينجّس قلبه بترك الصلاة بحجة نجاسة الثياب.

إن الصلاة وسيلة لإصلاح الكيان الروحاني. وكما أن الجسم المريض لا ينجو من الموت بحجة أنه مريض فلا يستطيع تناول الطعام، كذلك فإن الجسم الروحاني لا يمكن أن ينجو من الموت بحجة أنه مريض فلا يستطيع أداء الصلاة. إذا لم يستطع المرء تناول الطعام نتيجة مرض كأن يكون في حلقه ورمٌ، أو يكون في فكّه وجعٌ، أو أنه يتناول الطعام لكن معدته لا تهضمه نتيجة سرطان أو غدة سامة فيها، فلا تقبل الغذاء بل تمجّه بطريق القيء أو تدفعه إلى الأمعاء فيخرج إسهالاً، أو بأمعائه

مرض فلا تمسك الغذاء أو لا تهضمه، فلن ينجو من الموت، لأن الجسم البشري يموت بدون الغذاء. كذلك فإن الذي يترك الصلاة فلا بد أن يموت روحانيًا وإن تركها لعذر. إن بعض الناس يظنون لعدم بصيرتهم أنه إذا كان العذر مقبولاً فلن تظهر أي نتيجة، ولكنه ظن باطل. كلا ستظهر النتيجة سواء أكان العذر مقبولاً أو غير مقبول. فإنك إذا دهنت رأسك بالزيت سواءً اشتريته بمال الحلال أو مال الحرام فلا بد أن يصبح شعرك دهنيا، وليس أنك إذا دهنتَه بزيت اشتريته بمال الحلال فيصبح دهنيا، وإذا دهنته بزيت اشتريته بمال الحرام فيظل جافًا. كما أنه ليس ممكنًا للثوب الذي اشتريته بمال الحلال أن يستر بدنك، بينما الثوب الذي اشتريته بمال السرقة لا يستره. كلا، بل سيستر الثوب الجسم سواء اشتريته بمال السرقة أو بكسبك الحلال، وتكون النتيجة واحدة.

والحق أن المرء يمكن أن يترك الطعام المادي قائلا: لا بأس لو متُّ جوعًا فإن جميع الناس يموتون وإني سأنال حياة الآخرة بعد الموت، ولكنه لو مات موتًا روحانيًا فماذا يفعل إذ لا تعويض للموت الروحاني.

فعليكم أن تواظبوا على الصلاة بالجماعة، واجعلوا أولادكم مواظبين عليها؛ إذ أرى أنه ليس هناك شيء هو أدعى لإصلاح أخلاق الأولاد وعاداتهم من الصلاة جماعةً. لقد سنحت لي الفرصة لمقابلة كثير من الناس وفحصِ أحوالهم، ثم إن الله تعالى قد جعلني مرهف الحس جدًا بحيث لا يحسّ الذين قد مرّوا بالتجارب لقرن من الزمان ما أستطيع أن أحسه من حلو الدنيا ومُرّها. وها إني أقول بناءً على خبرتي أنه ليس هناك شيء أدعى إلى الصلاح من الصلاة بالجماعة. قد لا أستطيع تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ كما ينبغي، إلا أني أقول إن الذي يواظب على الصلاة بالجماعة مهما بلغ في الذنوب والمعاصي حتى ولو سبق إبليس في الشر، فلا تزال هناك فرصة لإصلاحه. وها إني أقول ثانية إني لا أشك مثقال ذرة في أن من يواظب على الصلاة بالجماعة فستبقى فرصة الإصلاح متاحة له دائمًا مهما بلغ في السيئات. إني موقن بتأثير الصلاة بصدد جعل الإنسان صالحًا لدرجة أني أستطيع أن أحلف بالله تعالى أن المواظب على الصلاة بالجماعة

مهما صار سيء الأعمال فإن إصلاحه ممكن حتمًا، ولا يمكن أن يضيع. وإني أقول على وجه البصيرة أن فرصة إصلاحه متاحة حتى آخر لحظة شريطة أن يكون مواظبًا على الصلاة بحيث يجد فيها لذةً وسرورًا.

أتذكر واقعة حدثت معي في صغري، وهي أن المسيح الموعود عليه السلام مرِض مرة ولم يستطع حضور المسجد لصلاة الجمعة. ولم أكن قد بلغتُ سن البلوغ حتى تسري عليّ أحكام البالغين، فخرجتُ إلى المسجد لأداء صلاة الجمعة، فرأيت في الطريق شخصًا يرجع من المسجد. لم أكن قد بلغت من العمر بحيث أتذكر صورة هذا الرجل إلا أنها لم تغب عني نتيجة تأثير هذا الحادث في قلبي، واسم هذا الشخص محمد بخش، فسألته: لماذا ترجع، هل انتهت الصلاة؟ قال: لا، ولكن المسجد ملآن بالمصلين ولم أجد فيه مكانًا فرجعتُ. فلما سمعتُ قوله رجعت أنا أيضًا وصليت في البيت. فلما رآني المسيح الموعود عليه السلام قال: لِمَ لم تذهب إلى المسجد للصلاة؟ وإنه من فضل الله علي أني كنت منذ طفولتي أكنّ احترامًا عظيمًا للمسيح الموعود عليه السلام بصفته نبيَّ الله تعالى. فوجدت في نبرته شدة، وفي وجهه آثار الغضب، فكان لسؤاله وقع كبير في قلبي، فأجبتُه: لقد ذهبت ولكنني رجعت لأن المسجد كان ملآنًا بالناس ولم يوجد فيه مكان. فسكت المسيح الموعود عليه السلام. ولكن بعد صلاة الجمعة لما جاء المولوي عبد الكريم رضي الله عنه لعيادة المسيح الموعود عليه السلام فإن ما سأله حضرته عليه السلام هو: هل حضر الناس المسجد بكثرة اليوم؟ فخفت خوفًا شديدًا لأني لم أذهب إلى المسجد بنفسي، وكنت لا أدري ما إذا كان الرجل الذي أخبرني قد أخطأ أو أكون قد أخطأت أنا في فهم قوله؛ ولو لم يكن المسجد ملآن فسيقال وفي كلتا الصورتين أني قد كذبتُ. ولكن المولوي عبد الكريم قال في الجواب للمسيح الموعود عليه السلام: نعم يا مولاي، بالفعل قد حضر الناس اليوم بكثرة. وأنا لا أعلم حتى اليوم الأمر الواقع، إلا أن الله تعالى قد برّأ ساحتي بشهادة من المولوي عبد الكريم. على أية حال، لقد ترك هذا الحادث أثرًا عميقًا في قلبي لا أزال أحس به حتى اليوم، وهو يبين لنا مدى اهتمام المسيح الموعود عليه السلام بالصلاة بالجماعة.

إن الذي لا يصلي بالجماعة رغم بلوغه سن الرشد فهو منافق، أما الذين لا يعوّدون أولادهم على الصلاة بالجماعة فهم القَتَلة السفّاكون لدمائهم. لو أن الوالدين ربّوا أولادهم على الصلاة بالجماعة فلن يأتي عليهم وقت يقال فيه أن إصلاحهم مستحيل ولا علاج لهم.

لا شك أن المسلمين اليوم يصلون في المساجد، ثم لا يتورعون أيضًا عن كثير من المعاصي بعد خروجهم من المساجد، فيكذبون ويرتشون ويخدعون ويغشّون ويخونون في المعاملات والتجارات؛ ولكن سبب ذلك أنهم لا يؤدون الصلاة بشروطها التي وضعها الإسلام، ولو صلّوا بشروطها لتطهرت قلوبهم وزالت أدران معاصيهم ونجوا من شتى الذنوب والآثام، لأن الذي يحسن أداء الصلاة مراعيًا شروطها التي وضعها الله يجد في نفسه تغييرًا سريعًا، ولا تمضي أيام كثيرة حتى يكتسب ملَكةً خاصة تمكّنه من معرفة السيئات، فيطّلع بها على دقائق المعاصي والآثام التي لا يطّلع عليها الآخرون، وتحذّره الملائكة من كل إثم وتنبهه عند كل شرّ، وينال القوة لمحاربة الشيطان. ذلك لأن المصلي يقوم بتسبيح الله وتحميده، والله لا يترك أي عمل بدون جزاء، بل يجزي العبد على أعماله أفضل جزاء. عندما ينيب العبد إلى الله تعالى في صلاته بكمال التذلل والخشوع والخضوع متخذًا جميع الأشكال التي تتبعها مختلف الشعوب لإظهار عبوديتهم لله تعالى فإنه تعالى يرفعه عاليًا. فإذا سبّح الله تعالى قال الله تعالى لملائكته: إن عبدي قد سبّحني من كل عيب ونـــزّهني من كل منقصة، فطهّروه من العيوب، وإن عبدي حمدني فانشروا حمده في الدنيا، وإن عبدي تذلل وتواضع لي فاكتبوا له العزة والرفعة. فكلما واظب المرء على الصلاة وأقرّ بسبوحية الله وحمده وعظمته جعل الله كفّة حسناته ثقيلة ورفعه باستمرار. وحيث إن الإثم ليس إلا نتيجة تعلُّق الإنسان بالأشياء المادية، فكلما ترفّع المصلي عن العالم المادي ضعفت علاقته بالأشياء المادية وصار محفوظًا منه.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾.. أي أن ترك الفحشاء والمنكر غاية عظيمة، ولكن ذكر الله تعالى في الصلاة أكبر من ذلك.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾، فكلما تذكرونه يذكركم ويشرفكم بقربه وإلهامه ويهيئ الأسباب لإصلاحكم وإصلاح قومكم. لقد أمر الرسول ﷺ بقراءة قوله تعالى "اذكُروا الله يذكركم" أثناء الخطبة الثانية للجمعة، كما قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ (البقرة:١٥٣).. أي اذكروني أشرّفكم بقربي وأدفع عنكم كل أذى ومصيبة. والظاهر أن الذي يحظى بقرب الله تعالى سيتخلص من كثير من المعاصي، وسيخصّه الله تعالى بحبه ووداده. ومن أجل ذلك قد حثّ الإسلام كثيرًا على ذكر الله والعبادة في جميع الاجتماعات والمجالس. فعندما نذهب إلى الحج نقوم بذكر الله، وعندما نخرج للعيدين نقوم بذكر الله، وعندما يكون هناك زواج وعرس نؤمر بذكر الله، وعندما نخرج في جنازة نؤمر بذكر الله. وكأن النبي ﷺ قد وصف لجميع اجتماعاتنا كثرة ذكر الله والعبادة حتى تكون مباركة، ومن أجل ذلك قال النبي ﷺ ما من مجلس يذكر فيه الله تعالى إلا ونـــزلت فيه الملائكة. فمن واجب المؤمن أن يقضي أوقاته بحيث يجري ذكر الله على لسانه ويزداد رغبة في الصلوات. إن ذكر الله تعالى هو بمثابة ضغط زر الإضاءة، فإذا ضغطت عليه أضاءت الغرفة، وإذا لم تضغطه ظل الظلام مخيّمًا عليها. كذلك إذا لم تقم بذكر الله تعالى لن تضيء نفسك. فعوِّدوا أنفسكم على ذكر الله دائمًا لتزدادوا صلة بالله تعالى، وتتقوى عزيمتكم، وليكون في نظراتكم تأثير ويُلقى رعبكم في قلب العدو حتى يعترف الأعداء أيضًا أن هؤلاء أمة روحانية فعلاً.

وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦

التفسير: إن أول من وجه إليهم القرآن الكريم دعوته هم اليهود والنصارى، ولذلك ذكر الله هنا أهل الكتاب على وجه الخصوص بعد قوله: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾، فأوضح أنكم عندما تتلون القرآن الكريم على أهل الكتاب فلا بد أن يتطرق الحديث إلى المقارنة بين القرآن والتوراة والإنجيل ويبدأ النقاش والجدال بين الطرفين؛ فنوصيكم ألا تقدّموا أثناء نقاشهم إلا أقوى الأدلة وأحسنها لأن عندهم كتابًا سماويًا أيضًا؛ لا شك أنه قد أصبح محرفًا إلا أنه لا يزال فيه شيء من كلام الله تعالى. فعليكم أن تضعوا القرآن الكريم بالحسبان دائمًا لدى نقاشهم لأن الأدلة القرآنية تبلغ من القوة بحيث لا يمكن أن تُباريها الأدلة الإنجيلية. فقوله تعالى: ﴿إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إشارة إلى الأدلة القرآنية بدليل قول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾(الزمر:٢٤).. أي أننا نسنّ هذا القانون ولكن لا نفرضه على الناس بالجبر إظهارًا لقوّتنا وسلطاننا، بل هو مجموعة أفضل ما يمكن قوله دينًا ودنيا وعقلاً ونقلاً وروايةً ودرايةً، مما يحتاجه الصغار والكبار والذكور والإناث، ولن يُلغَى هذا القانون إلى يوم القيامة. تسنّ الحكومات في الدنيا قوانينها بعد دراسة طويلة عميقة، ولكن تلغيها بنفسها بعد فترة، ومثاله ما حصل في أمريكا حين حاولت الحكومة جاهدةً منع الناس من شرب الخمر بسن قانون، ولكنها اضطرت في الأخير إلى إلغاء هذا القانون ورفع الحظر. بينما يعلن الله تعالى هنا أن القانون الذي نسنّه هو أحسن الحديث.. أي أنه مشتمل على ما هو خير وأفضل، وأنه منزه عن كل نقص وعيب، ويسدّ حاجات الناس كلها، ثم إنه ليس مما يُنسَخ أو يُبدَّل بعد قرن أو عشرة قرون، بل هو قانون دائم أبدي.

باختصار إن قوله تعالى: ﴿الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ يعني الأدلة القرآنية.. حيث يأمرنا الله تعالى أن نحاور أهل الكتاب بناء على هذه الأدلة، لا جزافًا بغير هدى.

ثم يقول الله تعالى: ﴿إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾.. أي أنه يوصينا أساسًا ألا نلجأ إلى القسوة في الحوار بل ينبغي أن ينحصر حديثنا في الأدلة والبراهين، ولكن يوجد في الدنيا بعض الظالمين الذين لا يتورعون عن الإساءة إلى أنبياء الآخرين وصلحائهم، فإذا كان الخصم سيئ الأدب بذيء اللسان فيمكن تبكيته بجواب قاسٍ. ومثاله ما فعله المسيح الموعود عليه السلام في هذا العصر مع القساوسة المسيحيين، فإنهم لما أثاروا مطاعن شنيعة نجسةً ضد النبي ﷺ وجرّحوا قلوب ملايين المسلمين بسهام بذاءتهم، واعتبروا النبي ﷺ – والعياذ بالله – دجالاً وكذابًا، وتجاوزوا الحدود كلها في بغضهم وحقدهم تجاه الإسلام ومؤسسه ﷺ وقاموا بتأليف كتب وسخةً وقحةً مثل كتاب "أمهات المؤمنين"، تصدى لهم المسيح الموعود عليه السلام وقام بإفحامهم وتبكيتهم بأجوبة قاسية. فلكي يكشف عليهم زيف دعاواهم بيّن لهم أن يسوع الذي يعتبرونه إلهًا لا يبدو طاهرًا ولا ذا خُلق بحسب أناجيلهم.

وكان طبيعيًا أن يرفع المسيحيون عقيرتهم لدى سماع هذا الجواب القاسي، ولكن المؤسف أن بعض المسلمين أيضًا لم يدركوا الحكمة وراء جوابه عليه السلام، وأخذوا يقولون أنه – والعياذ بالله – قد أساء إلى المسيح الناصري عليه السلام. مع أن حضرته عليه السلام قد قام بتبكيت هؤلاء القسس المعتدين بجوابه القاسي عملاً بهذه الآية القرآنية، حيث استثنى الله تعالى هنا المعارضين بذيئي اللسان المعتدين، وقال للمسلمين ينبغي أن تقدّموا أدلّتكم بالرفق والمحبة، ولكن إذا لجأ الخصم إلى السباب والبذاءة وأخذ يهاجم الإسلام وشخصياته المقدسة فيجوز لكم إفحامه وتبكيته بجواب قاسٍ مناسب. ومن أجل ذلك ترى أن القرآن الكريم أيضًا قد اتبع النبرة القاسية في بعض الأماكن، فمثلاً قد ورد في القرآن صراحة أن المعارضين لما اعترضوا على النبي ﷺ قائلين: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾(الفرقان:٨)، قام القرآن بتبكيتهم وقال إن الرسل السابقين أيضًا كانوا يأكلون ويشربون وكان لهم زوجات وأولاد. كما أن الأسلاف أيضًا قد اتبعوا الأسلوب القاسي في القرون الماضية. فهناك واقعة تاريخية شهيرة بأن ملك الروم كتب مرة إلى سلطان المسلمين بأن يبعث إليه أحدًا من علماء المسلمين لأنه يريد البحث في الإسلام. فأرسل

السلطان أحد العلماء. وكان النصارى قد دبروا خطة ليفضحوا العالم المسلم. فلما اجتمع الناس في بلاط الملك قام أحد القسس وقال: أيها الشيخ، لقد تعرضت عائشة زوجة رسولكم للتهمة، وكان المتهمون من قومكم أيضًا، فيبدو أن في تهمتهم وزنًا وقوة. وكان العالم المسلم ذكيًا، وربما هو الإمام ابن تيمية أو أحد أصحابه، فقال: جناب القس، هناك في التاريخ امرأتان متهمتان، إحداهما ذات بعل لقد اتهمها الخبيثون ولكنها لم تضع أي ولد، أما المرأة الأخرى كانت بدون زوج فاتهمها أعداؤها ووضعت ابنًا! فهلا أخبرتني الآن أيتهما قد اتُّهمت بتهمة حقيقية؟ فندم القس جدًا وبُهت، وقال: حضرة الشيخ، إنك تقسو في الجواب، مع أني لم أقصد الإساءة إلى أحد فيما قلت.

وقد وقعت معي أيضًا واقعة مماثلة. فذات مرة جاءني أحد الإنجليز وقال: أريد أن أناقشك عن الإسلام شريطة أن لا تجيبني جوابًا تقصد به إفحامي وتبكيتي فقط. فقلتُ: إذا لم تهاجم الإسلام لن أجيبك بما يبكّتك. فبدأ الحوار، ولكنه بعد قليل بدأ يهاجم النبي ﷺ، فهاجمتُ يسوعَ في الرد عليه، فاحمرّ وجهه وقال: لا أطيق سماع شيء ضد المسيح عليه السلام. فقلت: لقد وعدتُك أني لن أهاجم المسيح إذا لم تهاجم محمدًا ﷺ، فوفيت وعدي ولم أتكلم ضد المسيح بشيء، ولكنك أخلفتَ وعدك وهجمت على محمد ﷺ؛ فإذا كنت تغار لكرامة المسيح عليه السلام فهل تظنني عديم الغيرة بحيث أسكت على هجومك على الإسلام وكرامة محمد ﷺ؟ إذا هجمت على محمد ﷺ مرة من أجل المسيح فإني سأهاجم المسيح عشرين مرة تأييدًا لمحمد رسول الله ﷺ. فخرج من عندي قائلاً: لا أطيق سماع قول يسيء إلى المسيح عليه السلام.

إذًا، فلا يصحُّ الاعتراض على تبكيت المسيح الموعود عليه السلام للنصارى بجواب قاسٍ. كما أن كلماته القاسية ليست موجهة إلى كل واحد من صلحاء الطوائف وشرفائها المهذبين، وإنما خاطب بها أولئك القوم الذين أساؤوا الأدب وطعنوا في الإسلام بوقاحة. وقد صرح حضرته عليه السلام بنفسه ما نصُّه:

"نعوذ بالله من هتك العلماء الصالحين، وقدحِ الشرفاء المهذّبين، سواء أكانوا من المسلمين أو المسيحيين أو الآرية، بل لا نذكر من سفهاء هذه الأقوام إلا الذين

اشتهروا في فضول الهذر والإعلان بالسيئة. والذي كان هو نقيّ العرض عفيف اللسان، فلا نذكره إلا بالخير ونُكرمه ونُعزّه ونحبّه كالإخوان". (لُجّة النور، الخزائن الروحانية المجلد ١٦ ص ٤٠٩).

ثم يقول عليه السلام ما تعريبه:

"ليس كلامنا في هذا الكتاب وفي كتيب "فرياد درد" موجهًا إلى القسيسين الشرفاء وغيرهم من المسيحيين الذين يتجنبون لمروءتهم الشخصية فضولَ الكلام وبذاءة اللسان ولا يؤذوننا بالكلمات الجارحة، ولا يسيئون إلى نبينا ﷺ، وليست كتبهم مليئة بالكلام القاسي المسيء. كلا، بل إننا نُعزّهم ونكرمهم بلا ريب، وكلامنا القاسي ليس موجهًا إليهم أبدًا، وإنما كلامنا موجه إلى الذين قد تعدّوا حد الاعتدال سواء أكانوا ممن هم مسلمون باللسان أو من المسيحيين، والذين يوجهون إلينا مطاعن شخصية سخيفة، أو يستخدمون في حديثهم أو كتبهم كلمات بذيئة مسيئة إلى كرامة نبينا ﷺ. فليس كلامنا موجهًا إلى الشرفاء الذين لا يتبعون طريق البذاءة واللؤم، لا في هذا الكتاب ولا في غيره من الكتب، لا صراحةً ولا تلميحًا." (أيام الصلح صفحة الغلاف الداخلية، الخزائن الروحانية المجلد ١٤ ص ٢٢٨).

ونظرًا إلى الشرح الوارد أعلاه يُعتبر الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ استثناءً متصلاً، وهذا هو رأي المفسرين أيضًا؛ ولكن يمكن اعتباره استثناءً منقطعًا كما عند العلامة أبي البقاء.. أي يكون الكلام من هنا جملة جديدة، والمعنى لا تخاصموا الظالمين منهم وقولوا لهم تؤمنون بكتاب الله ونؤمن أيضًا بكتاب الله، وإلهنا وإلهكم واحد، ولا نريد جدالكم، إذ ما الفائدة من الجدال؟ أي أنهم إذا مالوا إلى السباب والبذاءة فلا داعي أن تقسوا عليهم في الجواب، بل الإعراض والصفح عنهم هو الطريق الأمثل.

ثم يوصينا الله تعالى أنه عند مناظرة أهل الكتاب: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.. أي نؤمن بالوحي الذي أُنزل إلينا كما نؤمن مبدئيًا بالوحي الذي أُنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مطيعون، فما الفائدة من الجدال فيما بيننا؟ تعالوا نعمل معًا على

نشر رسالة الإله الواحد. وقد أوضح الله تعالى هذا الأمر في موضع آخر من القرآن الكريم فأمرنا أن نقول لهم: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(آل عمران:٦٥).

لا شك أنها آية وجيزة، ولكن التدبر يكشف لنا أنها دليل ساطع على أن الإسلام يرضى بالحق دائمًا. ويعلم الذين قد درسوا الإسلام أن الله تعالى قد عدَّ اليهود في القرآن الكريم ألدّ أعداء المسلمين في قوله: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾(المائدة:٨٣). وبالفعل نجد أن اليهود قد عارضوا النبي ﷺ بمنتهى الوقاحة وبطرق شتى، رغم معاملته الكريمة معهم. فإن معظم الحروب قد نشبت بتحريض من اليهود، بل هم الذين قد أغروا كسرى إيران على قتل النبي ﷺ دالّين على خبث باطنهم، بيد أن الله تعالى قد سوّد وجوههم وخيّب آمالهم. وهم الذين لعبوا دورًا قياديًا في غزوة الأحزاب أيضًا، إذ لم يجتمع العرب كلهم ضد المسلمين من قبل. الواقع أنه لم يكن عند قريش مكة نظام قوي حتى يحشدوا هذه القوى، وإنما تمّ ذلك بتدبير من قبل القبائل اليهودية المنفية من المدينة، فجمع هؤلاء قريشًا وغطفان وبني سليم وبني أسد وبني سعد وغيرها من القبائل العربية القوية، وجاءوا بها على أبواب المدينة. لا شك أن الله تعالى قد سوّد وجوه اليهود عندها أيضًا إلا أنهم لم يألوا جهدًا في عداء المسلمين. لقد كان أهل مكة هم الأعداء الحقيقيون للرسول ﷺ، ولكنهم لم يسعوا قط لقتله خداعًا. بل عندما فقَد النبي ﷺ كل حقوقه المدَنية بحسب قانون مكة بخروجه إلى الطائف، واضطر للعودة إلى مكة ثانية، خرج أحد رؤساء مكة لمساعدته رغم كونه عدوًا شديدًا له، فأعلن أنه يمنح محمدًا – ﷺ – الأمان. فدخل بالنبي ﷺ مكة مع أبنائه الخمسة قائلا لهم: لا شك أن محمدًا عدو لنا، ولكن المروءة العربية تفرض علينا أن نُجيره ما دام قد طلب منا الجوار، وإلا لن تبقى لنا عزة ولا كرامة. فموتوا دون محمد لو حاول أحد الهجوم عليه. هذا هو العدو العربي الشريف. بينما نجد اليهود الأشقياء – الذين اعتبرهم القرآن الكريم أكبر عدو للمسلمين – قد دعَوا نبينا ﷺ في ديارهم بحجة التصالح

معه، وحاولوا قتله بإلقاء حجر الرحى عليه مِن على السطح، ولكن الله تعالى أخبره بمكيدتهم، فخرج من عندهم بسلام. كذلك دعته امرأة يهودية إلى طعام دسّت فيه السم، فأنقذه الله تعالى هذه المرة أيضًا. وهكذا أخرج الله أضغان الشعب اليهودي (البداية والنهاية: في ذهابه ﷺ إلى أهل الطائف، والسيرة الحلبية: المجلد الثاني ص ٦٢٨، غزوة الخندق، والسيرة النبوية لابن هشام: غزوة الخندق- وأمر إجلاء بني النضير، وبقية أمر خيبر).

ومن الواضح أنه لا سبيل للتعاون مع هذا العدو اللدود، ورغم هذا الخلاف الشديد يدعو القرآن الكريم اليهود إلى الاتحاد، فيقول هنا لنبيه ﷺ: قل لليهود الذين يعادونك هذا العداء الشديد، وقل للنصارى الذين يرمونك بالكذب والافتراء، إنكم تعتبرونني مفتريًا كذّابًا، ولكنكم تؤمنون بربي، فتعالوا نعمل معًا على إرساء وحدانية هذا الإله الواحد في العالم. وإذا لم يتحدوا معك رغم هذه الدعوة للاتحاد فقل سنطيع أمر الله تعالى في كل حال.

والآيات قيد التفسير أيضًا ترشد إلى الأمر نفسه؛ حيث بيّن الله تعالى أنه إذا لم يكن لكم بدٌّ من مناظرة أهل الكتاب فجادِلوهم بالأدلة القرآنية، وإن كان الأفضل أن تقولوا لهم: ما الجدوى من النقاش عبثًا؟ فإننا موحدون وأنتم أيضًا موحدون، ونؤمن بكلام الله كما تؤمنون بكلامه، بل نحن أشد إيمانًا بما نزل عليكم وعلينا من الوحي، فلماذا نضيع الوقت في المناظرات. تعالوا ننشر وحدانية الله تعالى بين الشعوب التي لا تؤمن بالله الأحد.

إنه لمن المؤسف أنه قد مضى على نزول هذا التعليم في القرآن الكريم ثلاثة عشر قرنًا إلا أن اليهود والنصارى لم يقبلوا هذه الدعوة قط. عندما سافرت إلى أوروبا للعلاج عام ١٩٥٥م دُعيت لإلقاء محاضرة في إحدى الكليات، وقد حضرها كثير من المثقفين. لقد أصرّوا علي أن ألقي كلمتي باللغة الإنجليزية فرضيت بذلك بسبب إلحاحهم وإن كنت لست معتادًا على ذلك. وكان الطلبة من بلاد مختلفة كألمانيا وفرنسا وسويسرا وأستراليا، وكان بعضهم من اليهود. وكانت هناك ترتيبات لترجمة خطابي إلى شتى اللغات ترجمة فورية، فكان صوتي يصل عبر المذياع إلى غرف الترجمة وكان هناك علماء يقومون بترجمتها الفورية إلى لغات مختلفة،

وكان أهل تلك اللغات يسمعونها بالسماعات. وقد وجهوا إلي إثر المحاضرة أسئلة كثيرة. فسألني بعضهم: إن ما بيّنتَ من تعاليم الإسلام هو نفسه ما تقدّمه اليهودية والمسيحية، فلماذا هذا النزاع إذاً؟ ولماذا نرى المسلمين والنصارى واليهود يتبادلون السباب والشتائم فيما بينهم؟ إن هذا النزاع يعني أن الدنيا لا تؤمن بإله موسى ولا بإله عيسى ولا بإله محمد! لماذا لا يُنهون هذا النزاع و لم لا يقولون تعالوا نؤمن بإله واحد ونعبده بصدق متمسكين بديننا؟

فقلت: لقد سرّني سؤالك، لأن الله تعالى قد أخبر محمدًا رسول الله ﷺ قبل ثلاثة عشر قرنًا بنفس الحل للقضاء على هذه النزاعات، حيث قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً﴾(آل عمران:٦٥). لقد اقترح محمد ﷺ هذا الحل قبل ثلاثة عشر قرنًا ودعا إليه أهل الكتاب كلهم، ولكن آباءكم رفضوا دعوته. فبدلاً من أن توجهوا إلينا هذا السؤال اسألوا آباءكم وكباركم لماذا رفضوا هذا الاقتراح الرائع الذي عرضه عليهم محمد ﷺ؟ فمسؤولية عدم الاتحاد لا تقع علينا وإنما تقع على آبائكم، إذ إن هذه الدعوة موجودة في القرآن الكريم منذ ثلاثة عشر قرنًا. فيجب أن توجهوا شكواكم إلى آبائكم لا إلينا.

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾

التفسير: أي أنزلنا عليك هذا الكتاب الآن كما أنزلنا التوراة على موسى من قبل. فكأن شخصك كجبل الطور حيث يكلّم الله تعالى في هذا الزمن. فالسعداء الذين أعطيناهم هذا الكتاب.. أي أتباع محمد.. يوقنون بصدق كل كلمة من هذا الكتاب، ويفدونه بأرواحهم، بل إن بعضًا من أهل الكتاب – علمًا

أن ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ هَؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ تبعيضية - يعتبرون القرآن الكريم مصداقًا لنبوءات موسى ويؤمنون به، مثل عبد الله بن سلام ﷺ الذي كان أحد أحبار اليهود (البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم). بينما يوجد في أهل الكتاب من يكفرون بالقرآن تعصبًا وعنادًا وهم يعلمون أنه حق، وإن هؤلاء هم في الحقيقة أول الجاحدين بنعمة الله تعالى إذ رأوا بأم أعينهم أن هذا الكتاب أحدث في الدنيا ثورة عظيمة، وأعاد الحياة إلى الأرض الميتة، ولكنهم لا يجدون الشجاعة للإيمان به رغم رؤية هذه الآية العظيمة. فثبت أنهم يكفرون بنعمة الله، والحق أن أمثالهم هم الذين يكذبون بآيات الله البينات.

وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾

التفسير: واعلم أن النفي هنا ليس لمجرد التلاوة، بل شرح لقوله تعالى عن رسوله ﷺ: ﴿يَتْلُواْ صُحُفاً مُطَهَّرَةً﴾ (البينة:٣).. حيث بين الله تعالى أن من أدلة صدق محمد ﷺ أنه لم يكن قادرًا على قراءة كتاب أو كتابة شيء بيده.. أي كان أُمِّيًا لم يحصل على العلوم المادية مطلقًا، ولولا ذلك لاشتبه أمره على المنكرين وقالوا: لعله نال هذه العلوم من الصحف الأخرى، ولكن لم يبق في هذه الحالة مجال لأي شبهة.

واعلم أن التلاوة نوعان: أولهما قراءة في كتاب، وثانيهما ترديد كلام وراء شخص آخر وإن كان الذي يُردده أعمى أو أُمِّيًا. فمثلاً لو قرأ شخص أُمّيٌّ ما حفظ من القرآن عن ظهر قلب فهذا أيضًا تلاوة، وكذلك لو قرأ أعمى ما حفظه من القرآن عن ظهر قلب فهو أيضًا تلاوة. فما يتلوه الإمام في الصلاة من القرآن الكريم لا يتلوه بالنظر إلى المصحف بل يقوم به عن ظهر قلب. وعليه فقوله تعالى:

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُواْ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ﴾ نفي للتلاوة بنوعيها، تلاوة قراءة وتلاوة عن ظهر قلب.

واعلم أن لفظ ﴿الكتاب﴾ قد ورد في القرآن الكريم دائمًا بمعنى الكتب المنزلة من الله تعالى وليس بمعنى الكتب المادية، اللهم إلا في مكان واحد فقط حيث ورد بمعنى المكتوب. وعليه فالمراد من قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ﴾ أنك لم تتلُ أي كتاب من الكتب السماوية قط. وقد أكد الله تعالى هذا الأمر لأن معارضي النبي ﷺ كانوا يتهمونه بأنه يقرأ عليهم ما ورد في التوراة والإنجيل زاعمًا أنه قد أوحي إليه؛ بل لا يزال المسيحيون يرددون هذا الاعتراض حتى اليوم. لقد تناول الله تعالى هذا الاعتراض في مكان آخر من القرآن الكريم حيث سجل قول الكافرين: ﴿فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾(الفرقان:٦).. أي أن أناسًا يقرأون على محمد (ﷺ) آيات التوراة صباحًا ومساءً فيعيدها علينا.. أي أنه يسرق هذه الأمور من كتبنا مدعيًا أن هذا وحي أوحي إليه. فيرد الله عليهم ويقول أليس غريبًا أن رسولنا يعيش ويتكلم مع الأمّيين طوال النهار، من دون أن يذكر شيئًا من التوراة والإنجيل، وفي الصباح يذكر لهم الأحداث التي وردت في تلك الكتب بحيث يصحح ما ارتكبته من أخطاء في بيانها، وينبه إلى الأمور التي أغفلتها في سردها؟ وهذا يعني أنه لا ينقل عن هذه الأسفار فحسب، بل يتدارك أخطاءها، ويزيل غبار التحريف الذي تراكم فيها على وجوه الأنبياء الكرام بأيدي اليهود والنصارى على مر الأيام.

ثم هناك مسائل من التوراة كان اليهود قد أهملوها في ذلك الوقت. فمثلاً ورد في الحديث أن يهود المدينة جاؤوا النبي ﷺ مرة بزانٍ، فقال لهم: ما هي عقوبة الزاني في التوراة؟ قالوا: ليس عندنا أي عقوبة للزاني. فأمرهم أن يأتوا بالتوراة. فلما فتحوها خرجت بالمصادفة نفس الصفحة التي ورد فيها أن عقوبة الزاني الرجم. فوضع أحد اليهود يده على هذه العبارة، ففطن لفعله الصحابي عبد الله بن سلام ﷺ، فقال له: ارفع يدك. فرفعها فوجدوا هناك حكم الرجم للزاني (مسلم: كتاب الحدود، باب رجم اليهود). فإذا كان معظم اليهود يجهلون مثل هذه المسائل الكبيرة

فما بالك بالمسائل الدقيقة؟ وكيف يقال أن النبي ﷺ كان يتلقن منهم هذه العلوم؟ وليس هذا فحسب، بل ورد في الحديث أن عمر رضي الله عنه قرأ التوراة أمام الرسول ﷺ فسخط عليه سخطًا شديدًا (المشكاة: كتاب العلم، باب الاعتصام بالكتاب والسنة). فكيف يتصور والحال هذه أن النبي ﷺ كان يتلقن مسائل التوراة من علماء اليهود؟

باختصار إن الله تعالى قد ردّ هنا على المعارضين بأنهم يتهمون محمدًا بأنه قد علم هذه المسائل بقراءة التوراة والإنجيل، مع أن قراءته هذه الأسفار مستحيلة؛ فهو أُمّي لا يعلم القراءة والكتابة. ولو سلّمنا جدلاً أنه كان يقرأها فعلاً فكان ضروريًا أن يذكر للآخرين أيضًا ما ورد فيها من أحداث ومسائل، لأن المرء إذا أراد أن يتعلم علمًا فلا يلمّ بجميع مسائله في يومين أو ثلاثة، بل يتطلب هذا أن يدرس دراسة متعمقة لسنة أو سنتين، وأن يناقش ما يتعلّمه مع الآخرين، ولكنكم تعلمون أن رسولنا لم يناقش أحدًا في هذه المسائل قط، فكيف أخذ يتحدث عنها الآن فجأة؟ فثبت أن مصدر معلوماته ذاتٌ عليا هي أعلم من جميع علماء الدنيا، وإلا فإن رسولنا لا يستطيع قراءة كتاب بلغته الأم، فكيف يقرأ كتابًا بلغة أخرى؟

وباختصار إن قول الله تعالى هنا: ﴿مِنْ كِتَابٍ﴾ يعني الأسفار السماوية، حيث نبّه الله تعالى هنا أعداء الإسلام أن رسولنا هذا يعيش بينكم، فهل سمعتموه من قبل وهو يتحدث عما ورد في التوراة والإنجيل؟ فكيف تمكن في ليلة واحدة من معرفة ما ورد في هذه الأسفار؟ وكيف تعلم لغتها وحفظ محتوياتها في ليلة واحدة؟ وإذا كان قد حصل هذا فعلاً، فهو في حد ذاته معجزة. ولكن الواقع أنه كان يجهل كل هذه الأمور من قبل، و لم يناقشها مع أحد من قبل، فالسؤال الذي يفرض نفسه: من ذا الذي يمكن أن يُعلّمه التوراة؟ إذ لم يكن في مكة إلا شخص واحد كان ينقل أجزاء من التوراة من العبرية إلى العربية وهو ورقة بن نوفل، ومع ذلك كان لا يعرف كل ما ورد في التوراة أيضًا.

ثم إن النبي ﷺ لما رأى بعد بعثته بعض المسلمين يقرأون التوراة منعهم من ذلك لكي لا تختلط مسائلها بمسائل القرآن.. كأن تكون هناك مسألة في التوراة فيظن الناس أنها في القرآن، أو يحدث العكس. كما نهى ﷺ أصحابه عن كتابة أحاديثه

مخافة أن تختلط أحاديثه بوحي القرآن الذي كان ينـــزل عليه (مسند أحمد: مـــسند أبي سعيد الخدري: الحديث رقم ١١١٠١).

أما قوله تعالى: ﴿وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾، فهذا النفي عام أيضًا.. والمعنى أن محمـــدًا لم يكتب أيضًا أيًّا من الكتب السماوية قط. وكان هذا النفي ضروريًا إذ قد يظـــن البعض أن محمدًا (ﷺ) كان يؤلف القرآن الكريم مما ترجمه ورقة بن نوفل من التوراة (البخاري: كتاب بدء الوحي). ذلك أن المرء لا يفهم أحيانًا عبارة ما، ولكنه يـــستطيع نقلها ونسخها، شأن الناسخين عندنا الذين لا يفهمون معنى العبارة التي ينسخونها؛ ومن واظب على نسخ كلام غريب هكذا تمكن من فهم بعض الكلمات أيـــضًا. فمثلاً أنا لا أفهم اللغة العبرانية، ولكنني أفهم بعض كلماتها المشابهة للغة العربيـــة، كقول المسيح عليه السلام: "إيلي إيلي لِما شبقتَني" (متى ٢٧: ٤٦)، إذ توجد بـــين هـــذه الكلمات العبرية والكلمات العربية مشابهة فإنها تعني بالعربية: "إلهي إلهـــي لمـــاذا سبقتني وتركتني وراءك. إذًا، فيقول الله تعالى هنا لرسوله الكريم ﷺ إنك لم تكـــن قادرًا على نسخ هذه الكتب أيضًا حتى تعرف شيئًا مما فيها.

ثم يقول الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلا الظَّالِمُونَ﴾.. أي أن هذا القرآن يشتمل على التعاليم التي عندما يسمعها أصحاب العلم السماوي يشعرون في قلوبهم فورًا أنها كلام الله تعـــالى فعـــلاً، ولا يكفر بها إلا الظالمون.. أي إذا لم يكن هذا الكلام من عنـــد الله تعـــالى فكيـــف تفجرت من خلال القرآن عيون العلم والعرفان من صدور القوم الذين يخشون الله تعالى؟ إن هذا لا يتأتّى إلا بتأييد رباني، ولا يحظى بالتأييد الرباني إلا الكلام الـــذي ينـــزل من عنده.

وبالجملة إن هذه الآيات تفند الاعتراض الذي يثيره أعداء الإسلام عادة أن محمدًا ﷺ قد ذكر هذه القضايا في القرآن بناء على ما قرأه في التوراة والإنجيل وسمعه من الناس، حيث بين الله تعالى أن القرآن يحتوي على علوم ومعارف لا أثـــر لهـــا في الأسفار السابقة، فكيف يصحّ اعتراض النسخ والنقل؟ فمن واجبهم أن يُثبتوا أوّلاً أن هذه المعارف والحقائق موجودة في كتبهم. فما دامت كتبهم خالية من المعارف

القرآنية فكيف يصح قول اليهود والنصارى أن محمدًا (ﷺ) قد سرقها من كتبهم؟ فقولهم يماثل القول أن الشمس تستمد ضوءها من السراج.

وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

التفسير: أي يقول لك الظالمون لِمَ لا تنـــزل على هذا الرسول آيات من ربه؟ فقل لهم يا محمد، لا تعنون من الآية إلا آية العذاب، واعلموا أن مثل هذه الآيـــات أيضًا عند الله، أما أنا فليس عليّ إلا الإنذار. ثم ألا يكفيهم آيةً أننا أنـــزلنا عليـــك كتابًا كاملاً فيه رحمة وهداية لهم؟ فهل بقيت هناك حاجة ليتوجهوا إلى جهة أخرى وقد أعطيناهم ما لا نظير له.. أي أنـــزلنا لهم كتابًا كاملاً يتلى عليهم. إن النـــاس يذهبون إلى النهر، ولكن قد جاءهم النهر بنفسه، ويذهبون إلى الأساتذة ملتمسين منهم أن يعلّموهم، ولكن الله تعالى قد أرسل إليهم أستاذًا وأمَره: ﴿بَلِّغْ مَا أُنْـــزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾(المائدة:٦٨).. أي اذهبْ بنفسك إلى الناس وبلّغهم هذه الأمور كلها، واعلم أنك إذا قصّرت في تبليغ شيء مما نـــــزل عليك فسنقول لك إنك لم تبلغ شيئًا من رسالتنا. وهذا يعني أن أستاذنا ومولانـــا يأتينا في بيوتنا لتعليمنا.

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً﴾.. أي أن التدبر سيكشف لكم أن ما أمرنا به رسولنا لمّنةٌ عظيمة عليكم؛ ولذلك ترى أن نبينا ﷺ قد سُمّي في القـــرآن الكريم ﴿رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:١٠٨). والحق أنه ينطبق على هذه المنة الإلهية مثلٌ شهير في لغتنا البنجابية ما معناه: "تُعطَى الخبز فطيرًا ورغيفين". فالله تعـــالى قـــد

أعطانا كتابًا كاملاً من كل النواحي وهو منقطع النظير بين جميع الأسفار السماوية، وليس هذا فحسب، بل أمر رسولَنا ﷺ أن يأتينا في بيوتنا ليعلّمنا إياه.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.. أي أن المنّة الثانية أن الذين يؤمنون بهذا الكتاب سيجعل الله لهم العز والشرف في الدنيا. علمًا أن بعض المفسرين قالوا إن المراد من قوله تعالى ﴿ذِكْرَى﴾ أن القرآن الكريم نصيحة عظيمة، ولا اعتراض على هذا المعنى عندي، ولكن كلمة ﴿ذِكْرَى﴾ تعني أيضًا أن الذين يؤمنون بهذا الكتاب بصدق سيجعل الله لهم ذكرًا حسنًا في الدنيا، فسيذكر الناس خدماتهم ومنجزاتهم. وهذا يعني أن هذا الكتاب ليس ذو شرف وعظمة من حيث كمالاته أو محاسنه الذاتية فحسب، بل إن المؤمنين الصادقين به أيضًا سينالون العزة والكرامة في الدنيا.

ولما كان من المحتمل أن يقال كيف يمكن أن يكفي القرآن الكريم الناسَ إلى يوم القيامة، مع أن لكل عصر جديد حاجاته الجديدة وتطوراته الجديدة، فقام رسولنا ﷺ بدفع هذه الشبهة بقوله: إن للقرآن سبعة بطون◈.

والحق أن معظم الناس لم يفهموا معنى هذا القول النبوي كما ينبغي، إذ إن من معانيه أن معارف آيات القرآن الكريم ستتجدد وفقًا لمستجدات كل زمان، ومن أجل ذلك نجد أنه لم ينكشف على السابقين من مفاهيم الآيات الكثيرة ما انكشف على الذين جاءوا في العصور الأخرى. فمثلاً قد أتى المسيح الموعود عليه السلام بمعارف كثيرة جديدة لآيات من القرآن الكريم. فمع أن الآيات القرآنية هي هي، إلا أن الله تعالى قد كشف على حضرته عليه السلام بطونها الجديدة نظرًا إلى مستجدات هذا العصر. ذلك أن الظروف تتغير من زمن إلى آخر، وحيث إن هذا العصر عصر صُلح وسِلْم بالنسبة للدين، فاستخرج المسيح الموعود عليه السلام من القرآن الكريم نفسه

◈ حدثني عبيد الله بن عبد الله: أن ابن عباس رضي الله عنهما حدثه أن رسول الله ﷺ قال: أقرأني جبريلُ على حرف، فراجعتُه، فلم أزل أستزيده ويزيدني، حتى انتهى إلى سبعة أحرف. (البخاري: فضائل القرآن، باب أُنزلَ القرآن على سبعة أحرف) (المترجم)

أحكام الصلح والسِّلْم وعرَضها على الناس، فأوضح لهم أن الله تعالى قد قال لرسوله ﷺ بكلمات صريحة: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾(الغاشية:٢٣).. أي لم نبعثك لتكره الناس على دينك؛ بل إن من أعرض وكفر فعقابه بيد الله لا بيدك، لأنه تعالى وحده يعلم ما في الصدور. فكان هذا بطنًا آخر للقرآن الكريم كشفه الله ﷻ على المسيح الموعود عليه السلام نظرًا إلى أوضاع هذا العصر، فمنَع من رفع السيف لنصرة الإسلام.

إذًا، فإن من معاني قول النبي ﷺ: إن للقرآن الكريم سبعة بطون أنه ستقع في الدنيا سبعة انقلابات عظيمة، وعند كل انقلاب تتغير أذهان الناس، فيكشف الله تعالى عندها من معاني القرآن الكريم ما يشفي صدور الناس ويُطمئن أذهانهم. وبالفعل قد برزت في هذا العصر عشرات المسائل على شكل لم تبرز به من قبل، ومنها قضية النسخ في القرآن الكريم. لم تكن لقضية النسخ في القرآن الكريم أهمية عند الناس في الماضي، لأن أسوة الرسول ﷺ كانت أمامهم. فرغم وجود عقيدة النسخ لم يصعب عليهم معرفة صدق القرآن الكريم، ولكن عندما ابتعد المسلمون عن زمن النبي ﷺ و لم يستطيعوا تفسير القرآن الكريم بما يتماشى مع التطورات العلمية والعقلية أخذوا يقولون أن كيت وكيت من الآيات منسوخة، فأقام الله تعالى المسيح الموعود عليه السلام، فأثبت أنه ليس في القرآن الكريم آية لا يمكن العمل بها؛ وفسّر الآيات التي كانت تُعتبر منسوخة بمعانٍ تقبلها العقول بسهولة. فكان هذا بطنًا آخر لتلك الآيات كشفه الله تعالى على المسيح الموعود عليه السلام.

إذًا، فكون القرآن ذا سبعة بطون قد تكون إشارة إلى سبعة تطوّرات عقلية وعلمية، فأخبر الرسول ﷺ أن القرآن سيبقى ثابتًا شامخًا عند كل تطوُّر علمي، ولن يكون بوسع أحد أن يقول أن القرآن عجز عن سدّ حاجات هذا العصر. لا شك أن الأسفار السماوية الأخرى عجزت عن أداء معنى جديد يتفق مع العقول كلما تغيّر الزمن وتطور العقل، وذلك لأن تلك الأسفار لم تعد صالحة للعمل، أما القرآن الكريم فيعلن الله تعالى عنه أنه كلما تغيّر الزمن وتطور العقل وقرأ الناس القرآن

وجدوا فيه من المفاهيم التي تسدّ حاجات ذلك العصر، ويعترف الناس أن القرآن كاف لهذا العصر ككتاب، وأن محمدًا ﷺ يكفي لهذا الزمن كرسول.

واعلم أن قول الرسول ﷺ إن للقرآن سبعة بطون لا يعني بالضرورة أن هذه البطون سبعةٌ حصرًا، كلا بل قد تبلغ هذه البطون المئات والآلاف، ذلك أن عدد السبع في اللغة العربية يدل على الكثرة، كما هو الحال بالنسبة لقوله تعالى: ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾(البقرة:٣٠) حيث يعني أنه تعالى قد جعل آلاف الدرجات لرقي الإنسان. فالرسول ﷺ يخبرنا هنا أن الله تعالى قد جعل القرآن الكريم بحيث يكفي أهل كل عصر، ويغطي أفكار كل زمن، فإذا كانت أفكارهم خاطئة دحضها وإذا كانت صحيحة دعمها.

إن من أكبر محاسن القرآن الكريم أنه إذا تناول قضية ما جَمَع فيها كل المواضيع المتعلقة بها جمعًا متراكمًا؛ كالأرض التي تنطوي على طبقات عديدة حيث إن تراب كل طبقة يختلف عن الأخرى. فعندما نرى قطعة أرض نعلم ما إذا كان ترابها ناعمًا جيدًا للزراعة ويأتي بريع جيد، أم أنها أرض حجرية لا تصلح للزراعة، كما يمكن لنا أن نرى ما إذا كانت تصلح للبناء والعمارة، وما إذا كانت القواعد ستُحفر فيها حفرًا عميقًا، وما إذا كانت تتحمل ثقل عدة طوابق أم لا. ولكن أحد علماء طبقات الأرض عندما يحفر تلك القطعة من الأرض سيقول بعد حفر عدة أمتار أنه كان بها ماء قبل ألف سنة مثلاً، وقد عاش بها كذا وكذا من الحيوانات. ثم إذا حفرها عدة أمتار أخرى استنتج من نوعية ترابها بأنها قد تعرضت لكذا وكذا من التغيرات نتيجة النار والحرارة أو نتيجة ذوبان المعادن. وكلما حفر تلك الأرض أكثر وأكثر أخبرَنا بالمراحل التي مرت بها عبر مختلف العصور. فترى أنه يبين لنا برؤية تربة تلك الأرض أحداث آلاف السنين. والحق أن كل تلك الأحداث والأشياء كانت مختفية تحت الأرض نفسها. ونفس الحال بالنسبة للقرآن الكريم، فإن مطالبه الكثيرة أيضًا مخفية بين طيّاته.

ولو أن الإنسان أخرج كل ما يختفي في باطن الأرض من أشياء ونشرها على سطحها لتعذّر عليه السير على الأرض والعيش فيها. وحيث إن الله تعالى قد جعل

هذه الخفايا كلها في باطن الأرض، فإن الإنسان تمكّنَ من السير والعيش عليها. فعندما نحفر الأرض نجد في باطنها صخورًا كلسية، ولو أُخرجت هذه الصخور من باطن الأرض ونُشرت على سطحها فهل تظن أنها ستبقى صالحة للعيش عليها؟ كلا، بل لملأتها الصخور بدلاً من الناس. كذلك تمامًا لو أُخرجت جميع مطالب القرآن المخفية في طيات كلماته وسُجّلت في كلمات ظاهرة لأصبح القرآن كبير الحجم جدًّا فلم يستطع أحد قراءته، ولم يعُدْ كتابًا بل تحوّل إلى مكتبة ضخمة فيها آلاف الكتب، ولقال جيلٌ من البشر لقد قرأنا منه خمس مئة صفحة، وقال جيل آخر: لقد قرأنا منه ألف صفحة. ولكن القرآن الموجود بين أيدينا كتاب صغير وهو يحتوي في أحد طياته – كالأرض – موضوعًا وفي ثانيها موضوعًا آخر وفي ثالثها موضوعًا ثالثًا؛ وهكذا تحتوي كلماته القليلة آلاف القضايا والمفاهيم، وفي نفس الوقت يحفظه الحفّاظ بسهولة، ويقرأه القرّاء بسرعة. وقد أشار الله تعالى إلى نفس المعنى بقوله في القرآن الكريم: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾(البينة:٤).. أي لم يَفُتْه حُكْم أبدي واحد، بل هو مشتمل على جميع الأحكام التي يمكن أن تنفع الإنسانية إلى يوم القيامة. وللإشارة إلى هذه الميزة القرآنية نفسها قد سمى الله تعالى هذا الكتاب قرآنا مجيدًا في قوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾(البروج:٢٢)، وأعلن للناس: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِه سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ﴾(لقمان:٢٨).. أي لو قُطعت كل أشجار الأرض وجُعلت أقلامًا وتحولت مياه البحار كلها حبرًا وأُضيفت إليها سبعة أبحر أخرى، وكُتبت بهذه الأقلام والحبر كلماتُ الله، وانتهت الأقلام وجفّت بحار الحبر، لم تنته معارف القرآن وظل بحر علومه زاخرًا، ذلك لأن الله تعالى كما هو مجيد فإن القرآن أيضًا مجيد. إنه كلام ذو شأن عظيم، ومن المحال أن يأتي على الدنيا زمان يعجز فيه القرآن عن إرشاد أهلها. إنه يقف في كل عصر شامخًا بشأن جديد، ويبهر بلمعانه عيون أعداء الإسلام. إنه ليس كتابًا ميتًا كالتوراة و"الزندافستا" أو "الفيدا" فيعجز عن تقديم حلول المعضلات في أي عصر، بل هو كتاب حي يجد فيه أهل كل عصر أسبابًا جديدة للحياة. إنه كنز لا ينفد من الحقائق والمعارف. ولم يقع المسلمون اليوم فيما

وقعوا فيه من المفاسد – لسوء حظّهم – إلا لأنهم قد غضّوا الطرف عن جمال القرآن، وأخذوا يقولون أن القول بأكثر مما ورد في "البيضاوي" و"الجلالين" وغيرهما من التفاسير حرام، و لم يدروا أن الربّ الذي هو بنفسه مجيد هو الذي أنزل هذا الكلام المجيد، وكما أن الثروات الطبيعية لا تنفد أبدًا، كذلك فإن خزائن كلام الله لا تنفد أبدًا. إننا نرى أنه لم يأت على الدنيا زمان توقفت فيه ظاهرة الاختراع والاكتشاف؛ فمثلاً عندما اختُرع القطار وكانت سرعته حوالي خمسة عشر ميلاً في الساعة قال الناس: ماذا عسى أن يُخترع أفضل من ذلك؟ ولكن اختُرع بعده قطار سرعته ثلاثون ميلاً في الساعة، ثم أربعون ميلاً، حتى بلغت سرعته الآن خمسة وسبعين ميلاً. ثم اختُرعت سيارة موتور، فقال الناس إن القطار يجري على السكة الحديدية بقوة البخار الناتج عن غليان الماء بإحراق الفحم، فكيف تجري هذه؟ ولكنها جرت بسرعة، فقال الناس: ما الذي يمكن أن يُخترع أفضل من ذلك؟ ولكن اختُرعت بعدها السيارة، فقضى الناس العجبَ من اختراعها أيضًا. وكانت السيارة في البداية مرتفعة ورديئة التصميم، وكانت تحدث ضجّة كبيرة وهزّةً شديدة، و لم يكن السفر بها مريحًا. فأُدخلت عليها تعديلات، فصارت بالتدريج منخفضة وقليلة الاهتزاز، ورُكّبت فيها أسطوانات كبيرة فخفّ صوتها حتى لو مرّت بك اليوم سيارة لم تنتبه لها ولن تسمع لها صوتًا. فقال الناس عند اختراع السيارة: ماذا يمكن أن يُخترع أفضل منها؟ ولكن بعد فترة اختُرعت الطائرة، وكانت في البداية لا تطير أكثر من خمسين أو ستين ميلاً، ثم اختُرعت طائرات بلغ طيرانها مئة وخمسون ميلاً. وفي الحرب العالمية الماضية كان الناس يتعجبون من الطائرات التي تبلغ سرعتها مئة وخمسين ميلاً في الساعة، أما اليوم فتبلغ سرعتها ست مئة ميل، وبعضها تقطع مسافة ستة آلاف ميل دون توقف. وكانت البندقية في البداية تطلق رصاصة واحدة، ثم اختُرعت بندقية تطلق سبع طلقات أو عشرًا، ثم اختُرع المدفع الرشّاش باسم "Tommy Gun"، وكان يطلق مئة إلى مئتي طلقة بدون توقف. ثم اختُرع المدفع الرشّاش باسم "Bren Gun" ، وكان يطلق حوالي أربع مئة طلقة في دقيقة واحدة، وتصيب الهدف على بعد ثلاثة أميال.

ثم اختُرعت مضادّات الطائرات والدبابات، ثم اختُرعت القنابل التي لم تكن تصل إلى الأهداف البعيدة، فاختُرعت المدافع التي ترمي القنابل بعيدًا. ثم اختُرعت القنبلة الذرية التي هي رغم صغر حجمها أشدّ فتكًا وأشمل دمارًا من القنابل الأخرى. وقد اختُرعت الآن القنبلة الهيدروجينية و"القنبلة الكوبالتية". في البداية كان بوسع الإنسان حماية نفسه من تأثير القنابل باختفائه في الخنادق، ولكنهم قد اخترعوا الآن القنابل التي لا يزول تأثيرها وإشعاعها سنوات طويلة، فإذا خرج المرء من مخبئه أو خندقه هلك.

باختصار، ما دام الإنسان يكتشف كل يوم مخترعات جديدة في الدنيا، فكيف يعجز كلام الله عن الإتيان بمعارف جديدة؟ لقد جاء المسيح الموعود عليه السلام في هذا العصر وأخبر الناس أن خزائن كلام الله لم تنفد، بل كما أنه لا نفاد لخزائن الثروات الطبيعية كذلك لا نهاية لكلام الله تعالى. ومن الحماقة الشديدة الظن أنه ليس بوسع أحد أن يأتي بمعارف جديدة لكلام الله تعالى.

الحق أن معاني القرآن الكريم تتجدد دائمًا بحسب حاجة كل عصر، لأن الله المجيد قد أنزل هذا الوحي الذي هو مصداق لقوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾(الرحمن:٣٠). فإذا انكشف على أحد معنى جديدٌ لآية من القرآن وأيّدته آياته الأخرى وصدّقته الفطرة الإنسانية ولم تعارضه اللغة العربية فلا شك أنه معنى صحيح. ولو اعتبرنا مثل هذا المعنى غلطًا لكنا مثل ذلك الأحمق الجبان الذي جُرح في الحرب، فرغم أنه رأى الدم ينزف إلا أنه ظن أنه لم يصب بجرح، وأخذ يجري ويقول: ربّ اجعل ما أراه حلمًا. لقد أخبرنا القرآن الكريم سلفًا منذ أربعة عشر قرنًا أن مطالب آيات القرآن الكريم ستتجدد طبقًا لحاجات كل عصر. فإذا دعمتْ لغة العرب هذه المعاني الجديدة وصدّقتها الآيات القرآنية الأخرى، أو لم ترفضها على الأقل، فكيف تُعتبر معاني خاطئة؟ علينا أن نرى فيما إذا كانت هذه المعاني الجديدة تتفق مع المعيار الموضوع لمعرفة المعنى الصحيح أم لا. فمثلاً يجب أن لا تخالف هذه المعاني العقل والمنطق، لأن الله تعالى هو خالق العقل ولا يمكن أن يوجد تعارُض في شيئين نابعين من مصدر واحد. ثم يجب أن لا تكون هذه المعاني مخالفة للآيات القرآنية الأخرى، إذ من المحال أن يوجد اختلاف في كلام الله تعالى. ثم

يجب أن تكون اللغة العربية مؤيِّدة لهذه المعاني، لأن القرآن الكريم قد أعلن بنفسه أنه نزل بلسان عربي. فإذا صحَّت هذه المعاني بحسب هذه المعايير فلن تكون باطلة. أما إذا لم يلاحظ المرء هذه المعايير وفسَّر القرآن بقياسه ورأيه لهلَك الناس. فمثلاً عندما أثبت المسيح الموعود عليه السلام في كتابه "منن الرحمن" أن العربية هي أُمّ الألسنة (الخزائن الروحانية المجلد ٩ ص ١٢٩)، جعَل بعض البسطاء منا يحاول أن يُثبت أن كل كلمة يتحدث بها الناس موجودة في القرآن الكريم. فمثلاً سُئل بعضهم: أين وردت كلمة "مرچ"[٥] في القرآن الكريم؟ فلم يلبث أن قال: ألم تقرأ قول الله تعالى: ﴿اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾(الرحمن:٢٣)؟ فالمرجان هو "مرچ".

وفي أيام الحرب الدائرة في جنوب أفريقيا سُئل أحدهم: هل في القرآن إشارة إلى هذه الحرب؟ فقال: نعم، في قول الله تعالى: ﴿قَومًا بُورًا﴾(الفرقان:١٩)، إذ المراد من ﴿بُورًا﴾ سكان جنوب إفريقيا الذين يُسمَّون "بؤر". إن هذا الأسلوب للتفسير باطل ومدمر، أما المفاهيم التي تتوافق مع اللغة العربية ويدعمها العقل الإنساني ولا تعارضها الآيات القرآنية الأخرى فهي صحيحة تمامًا سواء أظَهرت هذه المفاهيم القرآنية اليوم أو بعد قرن أو خمسة قرون. بل نقول إن آية واحدة لو فسِّرت بمئة أو مئتين من مثل هذه المعاني فكلها تُعتبر صحيحة لأن الله تعالى قد أعطانا تلك العلوم والمعارف في شكل القرآن الكريم، وجعله دليلاً على مجده وعظمته سبحانه وتعالى.

إن "البهائيين" وحدهم الذين يدّعون في هذا العصر نسخ شريعة القرآن، ولكن ادعاءهم لن يُعَدَّ صحيحًا إلا إذا أخرجوا لنا من القرآن الكريم أحكامًا لا يمكن العمل بها الآن، أو أخرجوا لنا من تعاليم "البهائية" ما لا يوجد في القرآن الكريم وهو أفضل مما في القرآن الكريم. ولكنهم لم يأتونا بمثال واحد حتى اليوم. فالحق أن القرآن الكريم لم يفشل في الماضي ولن يفشل في المستقبل، بل لن يفشل إلى يوم القيامة. يمكن أن تُبدَّل السماوات والأرض، ويأخذ قوم مكان قوم، وتحل حكومة

---

[٥] "مرچ" هو الفلفل في اللغة الأردية. (المترجم)

محل أخرى، وتندرس اللغات وتنمحي، ولكن من المستحيل أن يفشل القرآن الكريم. إنه الشرع الأخير الذي أنزله الله تعالى وسيبقى إلى الأبد. ومن قال أن القرآن قد فشل فقد كذب. وها نحن نتحدى هؤلاء البهائيين اليوم أيضًا أن يُخرجوا لنا من القرآن الكريم أحكامًا غير صالحة للعمل عندهم، أو يقدّموا لنا من شرعهم المزعوم تعاليم سامية نافعة لا توجد في القرآن الكريم. نشر أحد البهائيين ذات مرة كتابًا من مدينة "رنغون" ادعى فيه أن البهائية أتت بتعاليم رائعة، فإنها تدعو إلى حسن معاشرة النساء وتعليم البنات، وتنهى عن الظلم والسرقة والكذب. فكتبتُ له في الجواب: اذكُرْ لي أي دين في العالم ينهى عن حسن معاشرة النساء وتعليم البنات ويأمر بالظلم والسرقة والكذب. لا يوجد في الدنيا دين واحد كهذا أبدًا.

الواقع أن البهائيين قد أخذوا بعض أحكام القرآن الكريم وعزوها إلى البهائية، وإلا فإن القرآن الكريم مشتمل على الحقائق كلها. أما هؤلاء فإن زعيمهم عباس "أفندي" كتَب بعد أن عاد من أمريكا أن أول عمل قام به بعد عودته من هناك أنه ذهب إلى قبر "بهاء الله" وصلى هناك وسجد. لقد وقعوا في الشرك والوثنية إلى هذه الدرجة، ومع ذلك يزعمون أن القرآن الكريم قد فشل ونُسخ، وقد حلّت محله البهائية! والحق أن القرآن الكريم هو ذلك الكتاب الذي قد قضى على الشرك من الدنيا، أما البهائيون فقد بدأوا الشرك والوثنية مرة أخرى. أيوجد في الدنيا عاقل يصدِّق أن السجود على تراب القبر ينفع أحدًا شيئًا؟ وهل يمكن أن يقف مثل هذا الدين أمام الإسلام الذي قضى على الوثنية في الجزيرة العربية تمامًا، والذي قال مؤسسه ﷺ في مرض الموت مرة بعد أخرى: "لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ" (البخاري، كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور). أليس من الغباء الشديد أن يتهم البهائيون هذا الدين العظيم بالفشل؟